أحمد بهجت

مذكرات صائم

دار الشروق

مُذكّرات صائم

الطبعـة الثانيـة

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

© دار الشروق

القاهرة . ١٦ شارع جواد حسني - هاتف . ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس . 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى ذي النون المصري ..

إلى حرف النون في اسمه .. إلى النقطة الوحيدة في حرف النون ، إلى النقطة اليتيمة التي تبدأ عندها حسرات المحبين وتنتهي إليها آمال العاشقين .

إن دمعة وجد صوفي تحدرت على وجهك ، وقطرة عطر سقطت من ردائك ، وبعض نور انسكب من كلماتك .. قد صنعت معاً روح سيدي ومولاي الصوفي

شمس الدين

وهي روح أنا فيها وبها ومعها ولها ومنها وإليها .. والكتاب هدية لهذه الروح ..

وفاء لحظة الصدق التي وضعنا فيها يدنا على الكتاب الكريم كي نأخذ العهد ألا يخون أحدنا الله ، وإن أغفلنا أن نقسم ألا يخون أحدنا الآخر ، لم نغفل ذلك وإنما نسيناه ، لم ننسه وإنما لم يعد لنا بعد ضمان الوفاء لله أن نطلب أي ضمان آخر ..

احمد بهجت

رؤية الهلال

كان أحد أجدادي الذين يعيشون في عصر المماليك رجلاً قد أدركته حرفة الأدب ، وكان يكتب خواطره في الحياة بأسلوب المقامات القديم .. وقد ترك هذا الجد أوراقاً متفرقة وقليلة .. من بينها ورقة صفراء تحكي عن رؤية هلال شهر رمضان في ذلك الزمان ..

قال جدي :

« فلما جاء اليوم التاسع والعشرون من شهر شعبان ، استعد المصريون في ذلك الزمان ، لاستقبال أفضل الشهور وهو شهر رمضان ، ففيه على الأقل تسجن الشياطين ، ويقل ما يلقون من ظلم المماليك الحاكمين ، وفي وقت الأصيل ، بعد صلاة العصر بقليل ، خرج موكب الرؤية كالمعتاد ، وخرج لرؤيته كل الرجال والنساء والأولاد . وكان يتقدم الموكب في طريقه إلى جبل المقطم ، شيخ مهدم محطم ، يؤمن الجميع بأنه شيخ مطمطم ، وكيف لا وهو المصدر المسؤول عن رؤية الهلال ، وهي وظيفة شريفة لطيفة وعال ، يتوارثها شيوخ أسرته من أجيال وأجيال .

والعجب العجاب ، أن هذا الشيخ المهاب ، كان لا يبصر ما تحت

قدميه ، بسبب رمَد مزمن أصاب عينيه ، واستفحل نتيجة لجهل والديه ، لكنه رغم ذلك العمى الأكيد ، كان قديراً على رؤية الهلال من بعيد ، وطالما انفرد برؤيته ، من دون كل أفراد فرقته ، فلم يسع الحكام إلا الأخذ بشهادته ، وإعلان بدء شهر الصيام ، بدون سلام ولا كلام ..

ويزول العجب ، إذا عرف السبب ، فقد كان الشيخ يستعيض عن نظره الضعيف المضعضع ، بعيني مساعد شاب له يتبع ويخضع ، فإذا رأى الشاب الهلال ، عرف هو منه ذلك في الحال ، ثم ادعى منه لله ، أنه هو الذي رآه ، وصدق الكل دعواه ..

ويشاء السميع العليم ، أن يتغيّب الشاب عن الموكب في ذلك اليوم العظيم ، وكانت لذلك حكاية ولا كل الحكايات ، ليس كمثلها في الماضيات ، ولا يظن تكرارها في الآتيات ، فقد حدث قبل ذلك بأيام معدودات ، أن كان الشاب يسير في إحدى الحارات ، فوقعت عينه على إحدى الفتيات البلديات ، ذوات الملايات . ولم تكن كأترابها من السمراوات الكثيرات ، الممتلئة بهن الطرقات ، بل كانت بيضاء كالفضة النقية ، أو طبق المهلبية ، وبدا له وجهها تحت ملايتها السوداء ، كأنه البدر في الليلة الظلماء . وما كادت تبادله النظرات ، وترد على دهشته بالابتسامات ، حتى شعر بقلبه يحاول الهبوط إلى رجليه ، وبعقله يطير في الهواء مرفرفاً بجناحيه ، فلا عجب ان كان يقع من طوله ، لفرط انجذابه وذهوله . وهل هو إلا مصري ككل المصريين ، إذ يقفون أمام النساء البيض خاشعين مبهورين ، فاللون الأبيض عندهم هو لون الغزاة الفاتحين الحاكمين ، وإن يظفر أحدهم

بامرأة بيضاء فذلك هو الفوز المبين ، وبلوغ القصد والمراد من رب العالمين ..

ومن تبادل النظر والابتسام ، إلى تبادل التحية والسلام والكلام ، إلى التواعد على اللقاء بعد أيام ، وقع الاثنان في حب نصفه وجد ونصفه هيام ..

ولسوء حظ المصريين التعساء ، كان التاسع والعشرين من شعبان هو اليوم المحدد للقاء ، فتغيب الشاب عن موكب الرؤية في ذلك العام ، ولم يجد الشيخ بدّاً من الاعتراف بأنّه عجز عن رؤية الهلال ، فتأخّر الصيام يوماً بلا نقاش ولا جدال . وقال المماليك للمملوكين . أنتم الكسبانون ، وقال المحكومون البائسون : بل نحن منحوسون ، أما الفتى العاشق المجنون ، وأما الفتاة واسمها يبدأ بحرف النون ، فكانا في شغل عما كان ويكون ، بالجلوس بين يدي الحب المكنون ، في انتظار الجلوس بين يدي المأذون .. ولله في خلقه شؤون»

....

....

....

انتهيت من قراءة الورقة القديمة وابتسمت ..

في الأزمنة السحيقة البائدة ، وفي الأعوام القديمة السالفة الماضية كانت الاختلافات تثور بين فقهاء المسلمين على رؤية الهلال ، هل يرونه بعين الشيخ أم يرونه بعين علم الفلك .. وهل تعتبر عين علم الفلك وهي بلا حاجب كعين الإنسان رغم كونها بحاجب ، وهل لعين علم الفلك شرعية عين الإنسان أم ماذا .. وتدور حول هذه الـ «ماذا» آلاف

التساؤلات المنطقية المتمنطقة ، ويحتدم الجدل ويثور النقاش ويحمى وطيس الكلمات ، ويخيل إليك أنك داخل مسرحية كوميدية مضحكة ، ويزيد من فداحة الضحك أن يجري ذلك بين المسلمين ، وقد نزل دينهم بكلمة (اقرأ) ، وصرّح رسولهم بأن مداد العلماء مثل دم الشهداء يوم القيامة ، ولا تكاد سورة تمضي من القرآن بغير أن توجه النظر إلى آيات الله في الآفاق وفي الأنفس ..

جاء شهر رمضان أخيراً فرحباً بأفضل الشهور .. أي ذكريات تعبر ذهن المرء وهو يجلس في بيته في انتظار الصيام .. أحس أن القاهرة كلها تدخل قلبي بمآذنها الألف وقبابها المزخرفة وأحيائها القديمة وحواريها العريقة . أحب هذا الشهر بمثل الوهج الذي أحببت به أول فتاة عرفتها في حياتي . كانت رقيقة ونحيلة وترتعش حين تجهد نفسها في الحديث . تكتسي بيوت المدينة في شهر رمضان شيئاً من الجلال والرقة . فوانيس رمضان تضيء أركان الدكاكين . والأطفال في الطريق يضربون البمب . وقد استيقظت الحارة الكبيرة التي أسكن فيها تماماً .. واستيقظ معها في قلبي شيء ..

مع كل وقفة لشهر رمضان ..

مع كل بعث جديد لهذا الشهر يستيقظ في قلبي شيء .. شيء لست أدرك كنهه أو أعرف حقيقته .. شيء يشبه عذوبة الحب الأول ، أو يشبه غموض الأيام القلقة التي لا نعرف فيها هل وقعنا في الحب أو نتوهم ..

أحس في الليلة الأولى من شهر رمضان انني أرى من خلال النفس كل نفوس الآخرين في الوجود .. وينمو داخلي الحنين فأود أن أعثر

على النملة التي كلمت سيدنا سليمان لأقبّلها ، وأتمنّى أن ألقى الحوت الذي ابتلع يونس لأربت على رأسه ، وأحلم أن أجد الحمار الذي بعث أمام عُزَير لأحمله على ظهري ، وأفكّر عبثاً في قبر الهدهد الذي حمل الرسالة لبلقيس وعاد ليحكي لسيدنا سليمان عن عبادتها للشمس.. أين يقع قبر هذا الهدهد .. أي روعة أن يبعث الهدهد لنتحدث قليلاً عن عبادة الشمس ..

في بدايات شهر رمضان أحس نحو الكائنات ، كل الكائنات ، بالحب .. وأحس بالرفق والضعف إزاء قصص الحب الإنسانية والحيوانية والنباتية والجمادية .. ويملؤني إدراك للعلاقة بين تنهد القمر ومدّ البحر وجَزره ، كما أفهم سر الهوى المتبادل بين زهرة عبّاد الشمس التي تحول وجهها نحو أمّها ، حتى يجيء الليل فتنكس عنقها وتنام ..

في شهر رمضان .. أشعر بأن كل شيء في الدنيا يقوم على الحب ، هو الناموس المسيطر الحاكم في الدنيا .. وإن أفسده الناس بالكراهية والرحيل ..

ويكبر الإحساس بالحب في نفسي .

ثم تعيدني إلى الواقع أصوات زوجتي وهي تمارس قيادتها في المطبخ استعداداً للسحور ..

مدفع السحور

بعد ساعتين ينطلق مدفع السحور .

أصاب زوجتي نشاط مفاجئ حين أعلنت إشارات ضبط الوقت منتصف الليل . أطفئت أنوار الصالة وأضيئت أنوار المطبخ . اشتعلت عيون البوتاجاز الأربع ، وراحت أشياء تطقطق في الحلل .. عما قليل ينتهي إعداد السحور . البيت كله مستيقظ وفي حالة استعداد قصوى للطعام ..

ـ رمضان كريم ..

قالتها زوجتي وهي تمرق من الغرفة في طريقها إلى المطبخ .. أحدث مرورها تفريغاً للهواء في الغرفة فكدت أنقلب من مقعدي على الأرض.. حمداً لله فقد كانت الشبابيك مفتوحة . في تصورها أن رمضان هو شهر الطعام الوفير والحلوى الزائدة والغرائم والعزائم ..

يجب أن أنظم حياتي في شهر رمضان . إن الفرصة المتاحة للذنوب العظيمة التي يرتكبها المرء كل يوم يمكن أن تتبخر في هذا الشهر الجميل الذي يفترض فيه أن نحس بالحرمان .

ـ والنبي لانت واكل طبق الرز ده .. حلفتك بالنبي .

قلت في سري .. عليك الصلاة والسلام يا رسول الله . ومددت يدي

إلى طبق الأرز المخلوط . بعدها توالت توسلات الأسرة أن آكل هذا النوع من اللحم ، ثم أذوق هذه القطعة من الدجاج . ثم أنثني لهذه الصينية من الكنافة .. وفي كل مرة كان ذكر الرسول يتردد في الحديث فأمد يدي بغير تردد .. وتذكرت وأنا أملأ معدتي كيف كانت زوجة النبي عليه الصلاة والسلام تعيش بالأشهر وهي لا توقد النار في بيتها .. وكيف كان طعامه الخبز الجاف المغموس في الزيت . وكيف عرف أحب خلق الله وأكرمهم هذا الجوع النبيل الذي يدفع المرء مباشرة في قلب الوجود ويجعله يرق للعباد ، ويحنو عليهم ، ويشعر بأقسى آلامهم.

انتهى السحور بغير إصابات .. عدت إلى مقعدي محطماً تماماً وإن زعمت بالبلاغات غير ذلك . عدت بعد السحور غير قادر على أن أحس بالحب أو الهوى ، وانطفأ داخلي هذا الوهج الذي انبعث للحظات ، ولم يعد هناك شيء يشغلني غير هذا الثقل الكائن في المعدة .

سألت نفسي كمصري ، لماذا آكل إذا جلست للطعام كمن يأكل في آخر زاده ؟ هل هو جوع القرون الأولى من حياة المصريين . هل هو اعتيادنا ظلم الحاكم الذي يمد يده لطعامنا عادة قبل أن نمد أيدينا إليه . إن مصر أعظم بلاد الدنيا خصوبة وعطاء ، بل لعل مأساتها الأولى أنها تقدم عطاءها بغير جهد ، لكن خيرها يذهب لغيرها كما تقول الأمثال الشعبية .. لماذا إذن لم نزل نأكل إن جلسنا للطعام كمن يأكل في زاده الأخير ..

خرجت إلى الشريط الضيق الذي نطلق عليه اسم الشرفة ورفعت رأسي للسماء . لم أر شيئاً غير النجوم والسحب ..

النجوم تومض بأبعادها السحيقة في الكون .. وثمة سرب من السحب

التي تشبه النذر الغامضة يندفع أمام رياح شهر نوفمبر الباردة .

أحسست بالبرد فغادرت الشرفة ..

جلست أقرأ قليلاً قبل أن أنام .. ثم غلبني النوم .. نمت قبل أن أشرب ..

رمضان كريم

استيقظت في الثامنة على عطش شديد ملحّ ، نظرت في ساعتي وأدركت أن صلاة الفجر قد فاتتني . سأصلي الفجر غداً حاضراً لو كان لنا عمر . لماذا أذكر الآخرة هذه الأيام . أخرجت «المسبحة» من الدولاب ونفضت عنها التراب وأمسكتها في يدي . تأملت نفسي في المرآة قبل أن أهبط . اطمأننت على مظهري الرمضاني وهبطت السلالم .. التراب يملأ السلم ، وعم عبد العزيز البواب يقف أمام البيت وفي يده (المسبحة) ، قلت له إن التراب يملأ السلم وعماقليل سيتراكم ويدفننا تحته ، فابتسم ابتسامة عريضة وحرّك المسبحة في يده وتمتم :

ـ رمضان كريم .

قلت له (الله أكرم)وانسحبت .. هزمني الرجل ، طوال العام وهو يجلس على دكته الخشبية أمام العمارة ، ولا يكاد أحد السكان يستدعيه حتى ينهض من مكانه ويرفع يديه بالتكبير وينخرط في صلاة عميقة . ولا يجرؤ أحد السكان على إزعاجه أو مساءلته أو توجيه العتاب إليه فهو يصلي ، ثم جاء شهر رمضان ، وثبتت حقوقه في الصلاة بشكل نهائي وقاطع . وزاد على حقوقه حق جديد .. هو ترك السلم بغير كنس أو مسح . أسير في الحارة منذ دقائق . الحارة كما هي لم تتغير ، برزت

على صورتها عدة أشياء جديدة . منضدة خشبية قذرة عليها ستة براميل للطرشي ، وفوانيس رمضان تتدلى من دكان الخردواتي ، وثمة لافتة من القماش تضم تهنئة لسكان الحارة الكرام بحلول الشهر الفضيل ، وتحت هذا السطر توقيع لرجل ، تذكرت صاحب اللافتة ، إنه مرشح الحي الذي سقط في الانتخابات أكثر من ست مرات ، لم ييأس الرجل بعد ، وهو ينتهز فرصة دخول الشهر العربي أو رأس السنة أو شهر رمضان أو العيدين ليهنئ الحارة ويذكرها باسمه . سرت في الحارة . بقع الأتربة تصنع تلالاً صغيرة . يبدو أن الكناس صائم كبواب بيتنا ، سألت نفسي : هل يصوم الكناس طيلة العام ، منذ سنوات لم تكتحل عيني بمشهد كناس ، هل تحولت البلدية إلى مجمع للزاهدين والصائمين الذين ألهتهم الآخرة عن الدنيا بكل ما تضمه الدنيا من شوارع وأتربة ومطبات ومسؤوليات .. أخيراً ظهر الكناسون .. إنهم يكنسون أشد شوارع القاهرة نظافة ..

ركبت الترام ، كان مزدحماً كعادته ، الركاب صائمون والكمساري صائم ولا أحد يدخن . لا أعرف علاقة الصوم بسمع الإنسان وثقله . سأل الكمساري أحد الركّاب عن تذكرته ثلاث مرات . ثم صرخ فيه أخيراً فقال الراكب : أنت حتقطعها لي مرتين .. ما أنا واخد تذكرة من دقيقة . قال الكمساري : طيب وريها لي . دهشت في نفسي لانعدام الثقة بين الناس ، لاحظت أن الكمساري لا يقطع التذاكر بطريقته التقليدية ، عن طريق بل إصبعه بريقه ، كان ريقه ناشفاً من الصيام ، وقطع تذكرتين معاً ثم أعطاهما لأحد الركاب ثم اكتشف خطأه فانتهر الراكب وشخط فيه .. سيدة عجوز معها قفة ضخمة مغطاة تحاول

الركوب . سألها الكمساري بصلف وكبرياء غريبين : إنتي رايحة فين بالقفة دي ؟ ثم رفض تماماً أن يسمح لها بالصعود .. تأمل الركاب هذا المشهد ، ولم يتحرك أحدهم لنجدة العجوز ، بعد أن سار الترام همست للكمساري ان تصرّفه خاطئ .. قال لي بدهاء وخبث انهٰ يراعي أمثالي من البكوات كي لا تُتلف القفة ملابسنا ..

لم أعرف كيف أرد على المنافق .

وصلت إلى المصلحة . تأملت في طريقي إلى المكتب بوفيه المصلحة ، أحسست بحقد شديد وراحة . السرقات المستمرة التي كانت ترتكب في وضح النهار سوف تختفي اليوم . أجلس في حجرة تضم ستة مكاتب . أنا الرئيس على رأس الحجرة ولي رئيس في حجرة ثانية . ولنا معاً رئيس في حجرة ثالثة . معنا شاب في الثلاثين لا يصوم أبداً ، ومعنا زميل مسيحي جاملنا ورفض أن يدخّن أو يشرب الشاي ، وحين أراد أن يدخن استأذننا فسمحنا له وكان تعليق زميلي الشاب ان قال : أيوه دخن يا إسحق أفندي خلي البهوات تشم الدخان وتسلي صيامها . آذتني الملحوظة فقطبت . ما أغرب شباب هذه الأيام . إن الأدب الذي تعلمه جيلنا الذي شارف الأربعين لم يعد له وجود . أحسست بالعطش وكوب الشاي يدخل للمفطرين بالحجرة ، تحركت كل أشجار البطاطس والأرز في معدتي وتحرك الفول يطلب الارتواء . عكفت على الملفات أمامي وحاولت أن أركز ، كنت أقرأ السطر مرتين من بدايته إلى نهايته .. ثم أعود لقراءته من نهايته إلى بدايته .. وكان ذهني يسبح في آفاق بعيدة لست أعرف مكانها على وجه التحديد .. وكشرت أكثر وأنا أقرأ .. اكتشفت أين يسبح ذهني . إنها السجائر اللعينة .. ان حباً عظيماً دونه

حب قيس لليلى يسبح حول أشجار الدخان . أريد أن أدخن . دخان السجاير يتصاعد إلى الغرفة من زملائنا المفطرين ، وأكواب الشاي الساخن الجميل تصنع ديكوراً شديد الجمال وسط حرماننا الموحش .

أحسست أنني سأموت من العطش ، وقلت في نفسي لو مت اليوم فسوف يضيع عليّ الشهر كله ، ولو أفطرت ضاع اليوم وبقي الشهر .. ثم تراءت لي الجنة بأنهار الخمر واللبن والعسل . فقررت أن أصبر . وقطبت وجهي وصبرت .

....

....

قال العمدة الريفي الشيخ وهو يمسح لحيته بعد أن أنهى طبق العسل أمامه :

ـ متعكم الله بالجنة ونعيمها ..

وراح يتصور أنهار الخمر والعسل واللبن .. لن يهتم بأنهار اللبن أو الخمر .. اختصاصه أنهار العسل فحسب .. سيغطس فيها الشيخ بجبته وقفطانه ويشرب منها حتى ينتفخ بطنه ويطفو على السطح ، لكن الجبة والقفطان سيتلوثان بالعسل وليس لديه غير هذه الجبة ، ويقول له صاحبه هل نسيت أنك في الجنة وأن عندك ما تشاء من الجبب والقفاطين .. ويضحك الشيخ ويعيد نفسه بالخيال إلى نهر العسل .. ما أغرب أصنافاً ممن ينتمون إلى الإسلام بالاسم ..

كان لي صديق سكير ، وكان يقول لي :

ـ تعرف أي شيء يحزنني لأنني لن أدخل الجنة .. أنهار الخمر .. تصور أن الزجاجة التي نأتي بها كل يوم تنفد قبل أن نعمر الطاسة أو

نبدأ المتعة أو نسكر .. تصور نفسك أمام نهر من الخمر ..

وأحاول أن أقول له ان أنهار الخمر والعسل واللبن ليست أنهاراً للخمر أو العسل أو اللبن الذي نعرفه في الأرض . الجنة غيب لا نعرف عنه شيئاً ، وهي تحمل أسماء أشياء في الأرض .. لكنها لا تشبه أي شيء نعرفه في الأرض .. أراد الله تعالى أن يقرب صورتها للحواس البشرية ، وأن يلفت إليها أمثالك من الدواب ، فأطلق عليها أسماء لأشياء نحبها في الأرض أو نعرفها في الأرض .. ثم أوضح الرسول الكريم ذلك فقال :

« فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وإذن ، ضاعت أحلام صديقي السكير والشيخ النهم وكلاهما وجه لعملة واحدة هي إنسان هذا الزمان .. أو مسلم هذه الفترة ..

وما أبرئ نفسي ..

مثلهم تماماً أنا ، عقلي يضيق أحياناً فلا أفهم إلا لغة الحواس وتخرس الروح داخلي تماماً ..

الفقه المكتبي

اشتغلت مثلما أشتغل كل يوم في المصلحة ..

أعمل في الحكومة موظفاً في الدرجة الثالثة .. أنطوي على إحساس بأنني جعران فرعوني .. يزداد سعري كلما تقدم العهد عليّ .. ينحصر عملي في إمضاء أوراق كثيرة .. وكل عملنا لا يزيد على إمضاء الأوراق وترحيلها لتسير في طريق طويل تحفّه الإمضاءات من جانبيه ، ثم تعود إليّ لأوقِّع بالاستلام والعلم ، ما أغرب العمل في دواوين الحكومة ، يدخل المرء المدرسة ثم يشقى ويسهر ويتخرج ، بعدها يدخل الجامعة ثم يشقى ويسهر ، بعدها يخرج إلى الحياة كي يوقع بإمضائه .

أذكر أيام كنت طالباً بالثانوي اني كنت أجرب هوايتي في الإمضاء ، وكانت هوايتنا المشتركة كشباب أن نحضر ورقة وقلماً ونوقع بإمضائنا .. مرة ومرة ثانية وثالثة وعاشرة .. مينا نارمر هو المسؤول عن ذلك .. هو أول ملك وحَّد الوجهين القبلي والبحري .. بعدها بدأ عصر الإمضاءات .. اكتشف قدماء المصريين نبات البردى قبل غيرهم ، واكتشفوا الحروف الهجائية في تاريخ مبكر ، وتعلموا الكتابة قبل غيرهم من الشعوب ، من يومها استخفهم الفرح بما اكتشفوه فأصروا على استخدام الأوراق في كل شيء ، وانتقل ذلك إلينا فيما انتقل

من ميراث .. فصار التوقيع بالإمضاء تقليداً حكومياً وهواية مصرية .

كل شيء في الحكومة يمضي بالأوراق .. أوراق تذهب وأوراق تجيء .. إمضاءات تضاف وإمضاءات للتصديق على الإمضاءات .. سلسلة طويلة تلخصها أغنية الشاعر المصري العظيم فؤاد حداد .. كتب الأغنية لنا كي نغنيها في أوقات الفراغ من الإمضاءات ..

لا الدم ولا العرق
ولا فلاح عزق
ولا حداد طرق
يا سيدي المواطن
الرك على الورق

....

يا كراسي يا مراسي لمراكب التاريخ
والقعدة المطمئنة في دنيا ترخ الصواريخ
والزلزال المزلزل
بيجي لعندك يكسل
عسل يا عقلي عسل
أنا وانت في الندى
سهيني وعيني نايمه
غلطني في جمع قايمه
واكتب لي ما عدا
السهو أو الخطأ

....

عن نوحي عن سنوحي وفلاسفة الزمان
لا قامت انسانية ولا تم الهيلمان
ولا اتبنت حضارة
إلا على الإدارة
واللايحة المستشارة
والفقه المكتبي
بمنتهى الجدارة
آخد مرتبي
وبنظرة واحدة أعرف
ابنك طالع موظف
ولا طالع غبي
من أول ما اتخلق

....

انتهى عمل اليوم في المصلحة . فتحت الملفات ، وأغلقت الدوسيهات ، وأعطيت المرؤوسين إحساساً بالتقصير ، ومنحت الرؤساء إحساساً بالكمال ، وخرجت أعبث بحبات المسبحة . أسير في شوارع القاهرة مع أحد رفاقي في المكتب ، نسلي صيامنا كما يقولون في الأمثال ، نتفرج على الناس بسهوم الصائمين ونحدق في الأشياء بغير ثبات . تغير المنظر أمامنا فجأة . خرجت من أحد الشوارع الجانبية فتاة ترتدي الميني جوب . الجونلة الصغيرة سوداء والفتاة الطويلة بيضاء . والتناقض بين الأسود والأبيض ينبّه الحواس . انتبهت حواسي رغم إرادتي . كنا نتسكع بغير اهتمام ونسير على مهل ، فلما شاهدنا الفتاة

تسرع في سيرها ، زدنا من سرعتنا بغير أن نشعر ، أشحت بوجهي عن الفتاة وأنا أستغفر الله ، ثم عادت عيني تنسرق نحوها وأنا أستغفر الله أيضاً . ما أغرب هذا الشعب .. يخرج اللص على ضحيته وهو يسأل الله الستر والنجاح . تعطي الشريعة لك حق النظرة الأولى .. ربما يكون الشيء الذي خرج من الشارع الجانبي أسداً سيأكلك . من حقك أن تنظر لتطمئن . النظرة الأولى لك والثانية عليك كما يقول الفقهاء . النظرة الثانية هي التي تخضع لقانون العقوبات الإلهي .. هذه النظرة الفاحصة المتأملة المتأنية الدارسة التي تتسكع هنا وهناك وتجمع المعلومات وترتب المقدمات وتستخلص النتائج ثم تشيع بعدها في الوجه ابتسامة خبيثة . كان صديقي الصائم مثلي قد ركز عينيه الحمراوين من أثر الصيام على المنظر أمامه واستغرق في التأمل . لاحظت أننا نغذ السير ونحرك أيدينا ونحرك السبح بشكل أسرع . قطعاً يبدو منظرنا مضحكاً .

قال لي : طار صيامنا .

قلت له : ليس لصيامنا أجنحة .

وعدنا نتأمل جسد الفتاة الشاحب الأبيض الذي يشبه المرمر ، ولاحظت خلال سيرنا أن عدد الذين يتتبعون الميني جوب يزيد مع الوقت . كل واحد من السائرين في الطريق كان يتلفت حوله ، ويتأمل يمينه ويساره ، ويتظاهر بأنه ينظر هناك ، ويطمئن على أن أحداً لا يراه ، بعدها تنسرق عيناه وتموت نظرته عليها . كنا جميعاً نمشي بنفس سرعة الفتاة .. نحتفظ بالمسافة بيننا وبينها ثابتة . منظر طبيعي من الشارع ، لكن من سطح أي منزل يختلف منظرنا تماماً ، ومن السماء يختلف المنظر أكثر ، سيقول الملائكة بامتعاض ان سرباً من الصائمين

يسير وراء فتاة ترتدي الميني جوب ، توقفت الميني جوب فجأة أمام فترينة . حدث خلل مفاجئ في السرب الذي يتبعها . اضطربت خطوات البعض وأبطأت خطوات الآخرين . أما صديقي وأنا فقد ظللنا على سرعتنا فسبقنا الفتاة . وحمل الهواء إلينا رائحة عطرها الغريب .

قال صديقي وهو رجل أعزب فاته قطار الزواج :

ـ سوف أتزوج ذات يوم فتاة من هذا النوع .

قلت له :

ـ هذا النوع مثل قمر الدين يحتاج إلى العملة الصعبة .

وعدنا نتسكع .. عادت نظراتنا تزيغ منا وتتشتت في الفضاء .. عدنا نحدق في الأشياء بسهوم الصائمين .. بعد دقائق شممت بأنفي رائحة طعام أشبه ما يكون بمحشي ورق العنب الجيد .. قلت لصديقي :

ـ ألا تشم شيئاً ؟

قال : أشم رائحة لحم مشوي ..

قلت : غريبة .

قال : تشم نفس الرائحة .

قلت : ليست نفس الرائحة . قل لي . هل هناك محل قريب للطعام في هذا الشارع ؟؟.

قال : أبداً .

الشارع كله يمتلئ بالمحال التجارية على الجانبين وليس فيه مطعم واحد ، لم تكن هناك بيوت يسكنها ناس فوق هذه المحلات . هناك مكاتب . ما معنى هذا ؟ بدأت أشك في حاسة الشم عندي . أيمكن أن

تصنع رغبتنا في الطعام وهماً يصل إلى حاسة الشم فيقنعها بوجود شيء لا وجود له . لا أعرف .

لم نزل نسير ، نظرت في ساعتي ، قال صديقي :

ـ نمر على الجامع ونخطف ركعتين لله .

ترددت الكلمة في وعيي بغرابة .

نخطف ركعتين لله . يرتكب الناس ذنوبهم بإتقان وتأن ورسم سابق وخطط محكمة وإعداد قديم ، فإذا تعلق الأمر بالخالق خطفنا له ركعتين .

كان المسجد شبه خال حين دخلنا . الساعة تقترب من الرابعة . وحارس المسجد يجلس جوار دولاب الأحذية المكشوفة الخالي . أمسك كل واحد منا حذاءه كي لا نعطي الرجل قرشاً ودلفنا إلى الداخل . ماء الوضوء منعش والهواء جاف في صحن المسجد وهناك عدد لا بأس به من النائمين جوار الجدران .

الهواء طيب حقاً ويدفع إلى النوم . الله أكبر . بسم الله الرحمن الرحيم . قرأت الفاتحة وسورة صغيرة ثم ركعت . استقمت وحمدت الله وسجدت . كنت أتمتم بكلمات الصلاة وذهني نصف مشتت . سبحان ربي العظيم .. سطعت في ذهني الدرجة الثانية ألتي أسعى لها منذ ثلاث سنوات .. سبحان ربي الأعلى . فكرت في زميلنا البليد الذي نالها قبلي وتعداها وصار وكيلاً للوزارة . سمع الله لمن حمده . سمعت صوت كلاكس سيارة عابرة ، وتحسرت أنني لم أشتر سيارة إلى اليوم . التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله . نسيت أين وضعت علبة السجائر ، على الكومودينو أو في درج المكتب . سبحان ربي الأعلى

نسيت أن أحضر لزوجتي لفة قمر الدين .

حدث لي شيء غريب وأنا ساجد . لم أعرف هل هذه هي السجدة الأولى أم الثانية . لو كانت السجدة الأولى فعليّ أن أسجد مرة ثانية . ولو كانت الثانية فهل أسجد ثلاث مرات . فكرت قليلاً ثم قررت أن آخذ بالأحوط وأسجد .. كنت أبذل مجهوداً حقيقياً للتركيز وعدم السهو والسرحان ، ولكن ذهني كان يمتلئ بتيار جار وسريع من المشاكل والأفكار والمشاغل .. انتهيت من الصلاة فسلمت ثم أمسكت السبحة ورحت أسبّح .

سبحان الله . الحمد لله . تذكرت أين وضعت علبة السجائر . وجهزت في ذهني ما سأقوله لزوجتي عندما تسألني عن قمر الدين .

صعد الإنسان إلى القمر .. ونزلنا نحن لقمر الدين .

مدفع الإفطار

لم أكد أفتح باب منزلي حتى استقبلتني سحابة ضبابية من روائح الشواء والمسلوق والمحمر والحلوى . . مسحت شفتي الصائمتين وابتسمت . زوجتي في غرفة القيادة في المطبخ ، شمّت زوجتي رائحتي رغم روائح التقلية فأسرعت ترحب بي . نظرت في وجهها الطيب ونظراتها المنكسرة ، ونقلت بصري لمائدة الإفطار وقارنت بينهما معاً وبين صاحبة الميني جوب ، وجدت زوجتي أثقل في الميزان وأفضل . قطعاً لا تعرف صاحبة الميني جوب كيف تسلق بيضتين . جاءت زوجتي مباشرة من الريف إلى بيت الزوجية .

تعتبرني زوجتي أهم موظف في الحكومة المصرية .

تعتبرني الحكومة ذاتها ، وتؤمن أنني أشجع الناس وأعظم الناس وأحكم الناس ، وهي تشبه زوجة خرجت من القرن الماضي بكل فضائله .

نحن في انتظار مدفع الإفطار . . أكبر أبنائي ينظر في ساعة الحائط ويكاد يدفع بنظراته عقارب الساعة . . تأملت مائدة الطعام . على المائدة أهداف استراتيجية كاللحم والبطاطس ، وأهداف تكتيكية كالفول والسلطة ، وثمة أهداف تكميلية كالكنافة والقطايف . كمية الطعام

هائلة وتؤكد أن رمضان كريم . لا نطهو بغير السمن البلدي فنحن قوم محافظون ، استخدمت زوجتي السمن الصناعي يوماً فكدت أطلقها . انطلق مدفع الإفطار وبدأت العمليات العسكرية .

رحت أرقب أبنائي وهم يأكلون بحب . أصغرهم وأقربهم من قلبي يجلس مشموماً لا يأكل ولا يشرب . أمرته أمه أن يأكل ثلاث مرات فلم يستمع ، فلما أمرته أنا مد يده إلى الطعام فقالت أمه :

ـ لا يخاف إلا منك ربّنا يخليك ..

سررت من دعائها ومددت يدي إلى ثلاث بلحات جافة تضعها زوجتي على المائدة .. هذه البلحات الثلاث تذكرني بطعام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تعودت أن أفطر على البلح عملاً بالسنّة ..

وسط مائدتنا العامرة تبدو البلحات الثلاث غريبة ولا تكاد تظهر ، هذا ما بقي من الإسلام في بيتنا ، ذكرى صغيرة على موائد الطعام . تذكرت أفضل خلق الله وكيف كان يصوم وكيف كان يفطر . شهر رمضان عند المسلمين الأولين كان شهراً نزل فيه القرآن ، وكان شهراً يتخفف فيه البَدن من البُدن . وتلتقي فيه الرحمة بالإخلاص بالجوع بالحب ، وكان شهراً تعاود فيه الروح اتصالها بخالق الروح .

انتهيت من الطعام .

كادت روحي تزهق .. أحسست بوخم شديد ورغبة في النوم .. لم أكد أدخل غرفة النوم حتى دخلت زوجتي الغرفة .. ومعها طبق القطايف والكنافة . عبثاً تبحث عن الكنافة والقطايف في صدر الإسلام ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا شبع يوماً استغفر الله لأن في المسلمين جائعاً لم يشبع ، وكان عمر يقول :

ـ والله لو عثرت شاة بأرض مصر لخشيت أن يسأل عنها عمر يوم القيامة .

كان عمر يعتبر نفسه مسؤولاً عن أي مطب في أي شارع من شوارع المدن التي تنتمي لدار الإسلام ، وهو يعتبر نفسه مسؤولاً لو انكفأت بسبب هذا المطب «عنزة» نظرها ضعيف .

دخلت الكنافة والقطايف تاريخ المسلمين حين خرج الحب من القلوب ، وصار الإسلام سبحة معطلة وفانوساً أثرياً وكلمات تتمتم بها الشفاه وتنقطع صلتها بالإرادة .

تعبت من الأكل فاتكأت في الفراش ورحت أدخن . ثمة دوار يشبه دوار الحب الأول . أبنائي يجلسون جوار جهاز الراديو ، وعما قليل يفتحون التليفزيون . وكمية الضجيج الغريب الذي يبعثه هذان الجهازان لا تدانيها كمية في العالم .

وعدت أحاول النوم عبثاً . ثم دخل الغرفة أصغر أبنائي .. كان يمسك بيده كتاب الدين .. وكان يبدو عليه الوقوع في مشكلة من نوع ما ..

أدنيته مني وقبلته وسألته :

ـ عاوز إيه ؟

قال فجأة : إحنا بنصوم ليه ؟

فاجأني السؤال فقلت : عشان الاغنياء تحس بجوع الفقرا ..

قال : طيب الفقرا يصوموا ليه ؟

فاجأني السؤال .. هذا هو السبب التقليدي للصوم كما علموه لنا . وهو سبب غير صحيح .. لماذا نصوم . إن الصوم في حقيقته نوع من

الحب . هو العبادة الوحيدة التي لا تظهر على صاحبها في شكل طقوس أو حركات ، ولهذا كان العارفون بالله يبللون شفاههم حين يخرجون على الناس صائمين ، فالصيام صلة بين العبد والرب ، وهو صلة داخلية كسرٍّ من أسرار الحب يموت لو أعلنا عنه ، كانوا يصومون عن الدنيا رغم قدرتهم عليها وتحكمهم فيها ، وكانوا يصومون عما سوى الله حياء منه وشوقاً إليه ، وكانوا يمتثلون لأمر الله في الصوم رغم عدم فهمهم لحكمته ، مثلما يمتثل المحب لأمر حبيبه ولا يسأل . كانوا يا ولدي الصغير يتصورون أن كمال الحب أن تطيع ولا تسأل عن حكمة الإجراء وموجباته .. ذهب هذا الزمن الطيب وجاء زمن الصيام الذي نصوم فيه لنسهل عملية ابتلاع الكنافة والقطايف ..

درس العصر

سألت شيخ المسجد اليوم :

ـ هل يفطر ركوب الأتوبيس في رمضان يا مولاي ؟

أزاح الشيخ عمامته إلى الخلف ، وحك رأسه بيده ، وظهرت على وجهه علائم التفكير والحيرة ثم أجاب :

ـ الأفضل ألا تركب .. لقد أباح الله لحم الخنزير عند الاضطرار فهذه رخصة ، وليس في الأتوبيس نص صريح ولا عرفي ، وأغلب الظن أن هذا كذلك والله أعلم ، ولعله مثل لحم الخنزير رخصة ، فمن شاء ركب ومن أراد اكتمال دينه ترك .

بارك الله في الشيخ . أسندت ظهري للعمود الرخامي في المسجد ورحت أتأمل الجو حولي . تنام الناس اليوم في المسجد وتقرأ فيه الصحف . وفي صدر الإسلام كان المسجد مدرسة عليا وغرفة قيادة لأفراد الأمّة . خادم المسجد يطوف على النائمين بمقرعته وهو ينادي .. اصحى يا حاج . قوم يا أسطى . انهض يا سيد . فز يا ولد . لكل واحد نداؤه الخاص به . ولكل واحد نداؤه حسب وجاهته وهيئته ومنظره . لكل واحد نداؤه الخاص الذي يليق بمقامه السني أو الزري .

ميعاد الصلاة يقترب والصحف في يدي ولم أقرأها بعد . رحت

أقلب صفحات الدين في الجرائد . لم يكد هلال شهر رمضان يظهر حتى ظهرت في ركابه صفحات الدين مثل فوانيس رمضان . جاملتنا الصحف في شهر رمضان وقدمت كل جريدة منها صفحة للدين . موسم من مواسم الدين فإذا انتهى الشهر الفضيل عدنا وعادوا إلى حوادث الرجل الذي ذبح زوجته ، والمرأة التي خنقت عمها وأكلت زوره .

أساء إلينا الذين علمونا الدين بهذه الطريقة ، أذكر حصص الدين أيام المدرسة الثانوية ، كانت حصة الدين أجمل الحصص وأحلاها ، كانت هي الحصة السادسة ، والحصة السادسة هي حصة وهمية مثل الساعة الخامسة والعشرين . آخر حصة بعد أن نأكل ويدركنا الوخم . وكان أستاذ الدين يدخل ويكتب على السبورة « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم يكتب تحتها « حصة الدين » ثم يأمر بفتح كتاب الدين ثم يقول :

ـ اللي حيرفع حسّه حقطم رقبته .. كل واحد يقرأ في سره .

بعدها يضع رأسه على المائدة وينام ، وكانت حصة الدين هي حصة النوم واللعب والحواديت والضحك والانشغال بآلاف الأشياء التي لا علاقة لها بالدين . وكان مدرس الدين يظل نائماً ، فإذا زاد الفصل في الهيصة فتح عينيه ورفع رأسه ولعن آباءنا فنصمت .. فإذا عدنا إلى الصمت عاد هو إلى النوم .

وفي آخر السنة كان كل واحد منا يأخذ في الدين عشرة على عشرة ، بالنسبة لعقولنا الصغيرة . كنا نفهم أن الحكومة قد قررت تدريس الدين . ولكن الحكومة لا تأخذ الدين مأخذاً جديًّا . بل لعلها تخاف ان بعثت روحه أن تقضي عليها هذه الروح . ومرَّ الوقت وتطورت

نظرتنا إلى الدين ، صار علماً أساسياً في المدارس فيه امتحان وسقوط ولكن نظرتنا إليه ظلت كما هي ، ظللنا بعيدين تماماً عن حقيقته ، لا نلجأ إلى الله إلا في الأزمات . لم أكن أصلي إلا قبل الامتحان ، وكلما واجهتني مشكلة هرعت إلى الله ، في وقت الرخاء والنعيم لا أسأل ، فإذا وقعت في مطب صرخت يا رب . كم نتعامل بأسلوب البقالين اليهود مع الله . ندفع القرش للشحاذ ونقول نريد القصر في الجنة يا رب وكل غرفة تطل على الواجهة البحرية ناحية أنهار اللبن والعسل . سطعت في ذهني صورة لبيرم التونسي . كان له رأيه اللطيف في أحوال العبيد وعلاقاتهم بالتعبد والصلاح ، بينما تحجب مظاهرهم كثيراً من الغايات والأغراض :

يا رب سلطان حمالك يتعبد للذات
خالص لوجهك لا للنيران ولا لجنات
لكن عبيدك وخلقك يعبدوك لغايات
صبحوا وأنا عبد منهم كلهم ترسات
التاجر اما افتقر صلى وصام الفرض
والعمدة لما اترفد جالك وقع في العرض
والقطن لما انحرق صاحبه سجد عالأرض
وكلهم عالعبادة يطلبوا حسنات

عما قليل ننهض إلى الصلاة ..

سأظل مربوطاً في الجامع فقد حدثني يوسف أنه سيحضر لفة قمر الدين إلى المسجد ، يا ترى أي شيء أصابه ، هل سيجيء بها أم يظهرني كاذباً أمام زوجتي ورعيتي .. استعذت بالله ورحت أعد عدد حبات

الكريستال في النجفة الكبيرة في المسجد ، قررت أن أسلي صيامي بهذه الطريقة ، انزلقت مع الإغفاء . لا أعرف كم من الوقت نمت .. متى يهبط الإنسان إلى قاع النوم ، وما هو سر الأحلام التي يراها المرء في نومه . لا أدري هذا . كل ما أدريه أنني رأيت حلماً غريباً . رأيت نفسي أركب مركباً بمجدافين صنعا من السكر . وأعبر مياهاً زرقاء داكنة . ذاب المجدافان بعد دقائق في البحر الملح . بدأت المياه تنخفض في البحر .. هبط القارب إلى القاع .. قفزت إحدى الأسماك من القاع إلى القارب ، كدت أصرخ من الرعب . قالت السمكة : أنت آثم في حقها ، وأشارت بذيلها إلى الشاطئ الآخر . الفيت زوجتي تقف على الشاطئ الآخر وهي تبكي وتطلب إحضار لفة قمر الدين . انخرطت أسماك البحر في البكاء . ظهر تمساح كبير في البحر وكان يبكي . لماذا لم تحضر لها قمر الدين .. لماذا ؟؟.. أليست زوجتك المخلصة الصابرة . قال التمساح كلماته وانخرط في البكاء . ما الذي جاء بالتمساح إلى البحر الملح . بكت الأسماك فارتفعت المياه في البحر وعدت أطفو على السطح ، هبت موجة هائلة من البندق واللوز . صفعتني آلاف اللوزات والبندقات ، هبت موجة من الزبيب والمشمش ، تورم رأسي من الزبيب والمشمش ، امتلأ البحر بالقراصيا السوداء المخيفة .. صرخت من الرعب وأحسست أنني أختنق . انتزعتني يد عظيمة وألقت بي في فضاء موحش .

قال الصوت : امتحنوه .. من أي شيء تصنع القطايف ..؟

ارتعشت وأنا أقول : تصنع القطايف من القطايف .

قال الصوت : غلط ، بل تصنع من الدقيق المعجون بماء الورد . لماذا سميت بالقطايف ؟

قلت : لا أعرف ..

قال : سميت بالقطايف لأنها تشبه القطيفة .. ناعمة ولذيذة كالقطيفة ..

قال الصوت الممتحن : لقد ضعت وانتهى أمرك .. اضربوه بسبعين ألف صينية من صواني الكنافة .

وانهالت على رأسي صواني الكنافة .. بدأت أختنق ثم استيقظت فجأة . لم أنم غير ربع ساعة فكيف رأيت هذا كله .. استعذت بالله من الشيطان الرجيم ونهضت أحضر درس العصر .

صنعنا حول الشيخ في المسجد حلقة . عددنا ضئيل لو قورن بمن يلتفون حول الميني جوب أو حول تذكرة سينما . أجال الشيخ بصره فينا وتأملنا بنظرة متعبة وآسفة .. كان يبدو عليه الإعياء والخشوع وشيء من اليأس .. حمد الله وأثنى عليه وبدأ درسه في التيمم ، راح يتحدث عن موجبات التيمم وأسبابه وحالاته . أفاض في الشرح وتوسع ، استمعت لكلامه وسرحت .. هل جفت مياه النيل يا شيخنا الطيب .. لماذا لا تكلم الناس على مقتضى الحال ... يشبه هذا الشيخ شيخاً قديماً في قريتنا كان يخطب في الفلاحين فيحدثهم عن قوله صلى الله عليه وسلم أن من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ، وأن من أكل في صحاف من ذهب في الدنيا لم يأكل فيها في الآخرة . وكان الفلاحون يتأملون كلامه ويمصمصون بشفاههم ويصلون على الرسول

كلما جاء ذكره ، ثم ينصرفون بعد الدرس وهم يلمون جلابيبهم الممزقة على أجسادهم ..

حرير وذهب ؟!

يحدثون الناس عن الحرير والذهب وليس مع الناس قميص شتوي ، وهذا الآخر يتحدث عن التيمم وسط ناس لا يعيشون في صحراء ولا يسافرون في صحراء .. ناس يتركون حنفيات المسجد مفتوحة من كثرة المياه .. ويستخسر أحدهم أن يقوم بتركيب جلدة لحنفية بيته إذا تلفت .

أذكر في صباي أنني كنت مغرماً بدروس العصر في مسجد قريتنا ، وكان شيخ المسجد رجلاً غريباً يشتهر في القرية كلها بمشاكساته ومشاكله ، وكان أيسر شيء عنده أن يطس من أغضبه شكوى بغير توقيع .. كان يذهب إلى السوق فيبيع ويشتري ويعود بعد أن يمر على البوسطة ويشتري ثلاث ورقات دمغة ..

ويسأله أبي : لماذا الدمغة يا مولانا ؟

فيقول : تصلح للشكاوى .. لا يلتفت إلى شكوى بغير دمغة ..

وكان يضع الدمغة على الشكوى ولا يضع توقيعه . وكم بعث بشكاويه في العمدة وشيخ البلد ومفتش الزراعة والمأمور .. وكان دائماً يسأل حين يعين موظف جديد في قريتنا عن رئيسه ، ويكتب اسم رئيسه في نوتة متهرئة في جيبه ليعرف لمن سيوجه شكواه الغفل من التوقيع .. وكان هذا الشيخ يحدث الفلاحين عن أطباق الذهب وحرمة الأكل فيها .. ويحدثهم عن لبس الحرير وكراهية ارتدائه إلا لعلة في البدن مثلما فعل السلف .. أو يحدثهم عن رذيلة الكبرياء وهم مطحونون

الطبيعة ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه ، بسّاماً من غير ضحك ، محزوناً من غير عبوسة ، متواضعاً من غير مذلة ، جواداً من غير سرف ، رقيق القلب ، رحيماً بكل مسلم ، لم يتجشَّأ قط من شبع ، ولم يمد يده إلا إلى الحلال» .

وكان الشيخ عبد ربّه ينتهي من كلماته فيمسح عينيه ويهمس .. ومات عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام اشتراه لأهل بيته .

كان الرجل يضع أمامنا هذه الصورة لأكرم خلق الله ثم يسألنا أين نحن منها ؟. رحمه الله إن كان حيّاً أو ميّتاً ، لم يزل شيخ المسجد يتحدث عن التيمم ، وإحدى حنفيات المسجد تسيل وتصنع المياه خطاً طويلاً ، تمنيت أن يصنع طوفاناً صغيراً ويغرق الشيخ وهو يتكلم عن التيمم . وصل صديقي وبحث بعينيه عني ثم وجدني أخيراً فجأة .. جاء كما ذهب وهو لا يحمل قمر الدين . جلس بجواري فسألته هامساً :

ـ لماذا لم تحضر قمر الدين ؟

قال وهو يتنهد : لم أستطع أبداً .. وقفت ثلاث ساعات في السوق الحرة .. زحام كيوم الحشر ، وبهدلة ما بعدها بهدلة .

قلت له : وبعدين يا يوسف ؟

قال : ولا قبلين .. فشلت تماماً في العثور على ثقب أنفذ منه للبائعة ، تخيل ثلاث ساعات ولم أر قط لفة قمر الدين ..

نكست رأسي وحرت ماذا أقول ، سكت صديقي وسكت أنا الآخر ، لم تزل مشكلتنا بغير حل . ماذا أقول لزوجتي عندما تسألني

عن قمر الدين ، إنني أستطيع أن أمارس سلطاني كرجل وآمرها بإغلاق المباحثات في هذا الموضوع نهائياً . أستطيع أن أقول لها ان قمر الدين حرام .. أو انه مكروه ، أستطيع أن أقول لها انه مغشوش أو انه أو انه .. ستصدق أي شيء أقوله لها . غير أنني بعد ذلك أحار في موقفي بيني وبين نفسي . لقد وعدتها بإحضار قمر الدين .. ووعد الحر دين عليه .

قال صديقي : أقول لك طريقة لطيفة لصنع شيء له لون قمر الدين وله بعض طعمه ، تحضر عصير برتقال وتخلطه بقليل من عصير الجزر والنشا ثم يطبخ مثل قمر الدين ويوضع في أطباق ويوضع عليه ما تيسر من الزبيب ، زبيب الجمعيات ذي الوجه الأسود ، ويصبح عندك بعد ذلك طبق طعمه قريب من طعم قمر الدين تأكله وتحمد الله ...

قلت لصديقي : الحمد لله أولاً وأخيراً غير أن هذا تزوير لقمر الدين.

وعجبت في نفسي من هذا المخلوق الذي يسمونه قمر الدين ..

منذ عشر سنوات كان بلا قيمة .. كان لا شيء .. ثم استطاع في عشر سنوات أن يرفع من مستواه ويصبح شيئاً يقوم الناس بتزويره .. رغم انه لم يقم بأي عمل إيجابي ... أي حظ ؟!.

الرجل المفطر

وقع حادث صغير في طريقي من المسجد إلى البيت . .

مشاجرة صغيرة سببها أن رجلاً ضخماً طويلاً عريض الكتفين متورد الوجه ضخم القفا أشعل سيجارته في الترام جوار ناس صائمين . في البداية حاصرته نظرات التأفف والغضب ثم قال أحد الركاب :

ـ خسارة .

وكأنما كانت كلمته أول حبة تنفرط في مسبحة الكلام . بدأت التعليقات في بداية الأمر خجلة تمشي على استحياء ، تحدث أحد الركاب عن مراعاة مشاعر الناس ، تحدث رجل آخر عن الذوق الذي لا يتعلمه الناس من الكتب . ومصمصت إحدى السيدات بشفتيها ، ثم تخلت التعليقات عن خجلها وراحت تتحدث صراحة عن التصرف السخيف .

وجلس الرجل المفطر المدخن يتأمل جمهور الركاب بسرور بارد . ابتسمت بيني وبين نفسي . احترمته لصراحته . رحت أتأمل عدد المعترضين عليه ، كان عددهم يزداد ، قلت لنفسي من المستحيل أن يكون كل هؤلاء الركاب صائمين .. نقول إن فيهم نسبة ٤٠ ٪ من الصائمين ، قطعاً تجلس هذه النسبة صامتة ولا تتحدث ، يحس

الصائمون دائماً باستعلاء تجاه المفطرين وقلّما يكلمونهم في الصيام ، من الذي يعترض على افطاره إذن ، قطعاً بقية المفطرين في الترام . ان واحداً منهم قد كشف سريرتهم فقاموا عليه . ونظرت إلى رجل غاضب كان الكلام يقتتل على فمه . وأيقنت أنه مفطر وأقسمت لروحي أنه دخن سيجارته قبل أن يصعد إلى الترام . ربما في دورة مياه ، وربما في حجرة مغلقة .. لم تستمر المشاجرة لأنها كانت من جانب واحد . جانب الركاب . أما الرجل المفطر فظل يدخن سيجارته بهدوء ثم أطفأها من نصفها حين تزايد الهجوم عليه .

جربت أن أقول شيئاً يكسر الرهبة التي ركبت معنا بغير أن تقطع تذكرة .. قلت للمفطر :

ـ حضرتك بتدخن من غير فلتر .. ده يضر صحتك .. متجرب الفيلتر .

وانفجر نصف الترام يضحك .. وبدأت التعليقات الساخرة .. وخيل إليّ رغم هموم الناس العامة ، أنهم كانوا ينتظرون هذه الحكة على الأنف ليضحكوا لأنني اكتشفت نفاقهم . لست أعرف . على أي حال التفت الناس إليّ وتركوا فريستهم ..

قال أحدهم للمفطر :

ـ وجدت لك زميلاً فلا تحزن ..

لم أقل للرجل انني صائم . كنت سعيداً في قرارة نفسي لأن الرجل أشعل سيجارته وراح يعطّر لنا جو الترام بالدخان . كنت خرمان بعمق . واستمتعت بشم رائحة السيجارة إلى النهاية . أعتبر نفسي مدخناً ثقيلاً . ولا يهمني الإمساك عن الطعام أو الشراب . إنما يزعجني الكف

عن التدخين . تدخين السجاير . ومنذ ان جاء شهر رمضان . أحس ساعة الظهر أنني نصف تائه . أمسك قلمي الحبر في يدي وأقول : القلم راح فين ؟. وأبحث عنه نصف ساعة . أضع الدوسيه على مكتب زميلي ثم أبحث عنه فوق مكتبي ساعة . وفي العصر يشيط شيء في روحي وأنظر أمامي ولا أرى جيداً ، فإذا تقدم العصر أحسست أنني تائه تماماً . وأي مشكلة تعرض لي بين الظهر والعصر وأنا صائم تبدو مشكلة مستحيلة الحل . إذا طلبت من سويتش المصلحة نمرة تليفونية ، وتأخرت قليلاً أو قال انها مشغولة ، ساعتها أشعر بنفس الحقد الذي شعر به قابيل نحو أخيه هابيل فقام عليه ذات ليلة وضربه بفك حمار ميت وقتله . والويل لأي واحد من الجمهور لو جاء يطلب قضاء مصلحته العاجلة ، وصادف مجيئه بين الظهر والعصر . انني أصرفه بإشارة متكبرة من يدي أن يعود غداً في العاشرة .. فإذا قال إنني طلبت منه ذلك بالأمس أنكرت عليه ضيق أفقه وأفهمته أن عليه ألا يتجسس على ما أقول . وهكذا تسوء أخلاقي في شهر رمضان وأصبح عصبياً ضيق الصدر .

أي جريمة هناك لو استمتعنا بشم سيجارة يدخنها رجل مفطر في الترام . أي جريمة هناك . لاحظت أن ركاب الترام تركوا المفطر وراحوا يسلون صيامهم عليَّ ، تابعتني عشرات التعليقات الساخرة ، لا أنكر أنني ضحكت معهم على نفسي ، فنحن من أخف شعوب العالم دماً ولنا نكت كالرصاص ، وهكذا استمتعت بسخريتهم عليَّ ورحت أفكر في نفاقنا العظيم ، مثلما نملك طاقة هائلة من المرح نملك قدرة على النفاق الاجتماعي لا مثيل لها في العالم . وأثق أنا أن معظم الذين

يسخرون مني ومن المفطر ليسوا صائمين . وهكذا نحن دائماً .. نفكر في شيء ونقول شيئاً آخر .. تؤمن بشيء ونتصرف عكس ما نؤمن ، ونتحدث بشكل لا علاقة له بهذا أو ذاك .

إذا تعلق الأمر بذنوبنا أقسمنا أن الله غفور رحيم . وإذا تعلق الأمر بذنوب الآخرين تجاهنا ، أكدنا أن الله شديد العقاب .

منافقون نحن ، أو معظمنا حتى النخاع ، ومهرة في الكذب على الآخرين ، وأشد مهارة في الكذب على أنفسنا . نرتكب ذنوبنا بفن عظيم . فإذا ورد ذكر الفضيلة في الحديث ألفيت الجالسين جميعاً أئمة في الحديث ومشايخ ، وتسأل نفسك ؟ إن كانوا جميعاً بهذا الفضل فمن أين جاء اللصوص .

جاءت محطتي فغادرت الترام ، نزل معي الرجل المفطر . بعد أن سار الترام قال وهو يخرج علبة السجائر :

ـ اتفضل سيجارة يا بيك ، ولا تغضب منهم فهم غجر .

قلت له : صائم ، فتفضل افطر معنا .

قال : السجاير نعمة ، يتبطرون عليها والبطر يزيل النعم ..

قال كلمته ثم سار .. تأملت جسده الضخم وهو يسير ..

خيل إليَّ أن اسفلت الطريق يهتز من ضخامته . وتصاعدت سحب الدخان من رأسه وبدأ الرجل مثل حائط آدمي يسير بلا حياء ..

البيت الكبير

اليوم أتناول طعام الإفطار عند أمي ..

في أيام السنة العادية تستضيفني أمي مرة كل أسبوع ، وفي شهر رمضان أفطر عندها مرتين في الأسبوع . وأمي سيدة تسير في العقد السابع . وهي من هذا الطراز القديم العظيم الذي انقرض من حياتنا . إنها وكالة الأنباء الحية لعائلتنا وللحي الذي نعيش فيه . وهي مستودع أسرار كل شباب العائلة . وهي أعظم طاهية في الجزء اليابس من الكرة الأرضية . وربما كانت أعظم طاهية وراء البحار السبعة . وهي تزعق على الشغالة أو تنادي البواب فترتج جدران البيت بالمهابة . وهي الشبح الذي يخيف المكوجي والجزار وبائع الطماطم وبائع الفراخ . بنات اليوم المتزوجات لا يبحثن عن بائع الفراخ ، ويذهبن إلى الجمعية لشراء الفراخ الافرنكية ، بينما يذهب بائع الفراخ لأمي حتى باب البيت ولا ينزل إلا بعد اتهامه بأنه حرامي ووغد ، فقد أطعم الفراخ على الصباح كمية من الطعام تكفيها سنة . ويقسم الرجل أنه مظلوم غير أن شخصية أمي الطاغية لا تدع له مجالاً للاحتجاج أو الشعور بالظلم .

ولئن كان هذا حال أمي أثناء الشهور العادية ، فإن حالها في شهر رمضان وهي صائمة يمكن تخيله بسهولة . الويل لمن يعترض طريقها

وهي صائمة . يصيبه ما أصاب من اعترض طريق ملك المغول . كانت صحتها مضرب الأمثال زمان ، ثم أصبحت اليوم مريضة بالسكر والكبد وضعف في العينين ، بعد أن تزوج أبناؤها وبناتها اهتمت بتربية القطط ثم سئمت منها وطردتها ذات يوم ... بعدها اهتمت بالحياة العامة ، أصبحت عضواً في الاتحاد الاشتراكي ، أقنعت أهل الحي بانتخابها ولست أعرف كيف ، لا تخشى أن تتحدث عن الحال المايل إذا صادفها الحال المايل وكثيراً ما يصادفها هذه الأيام . مشاكلها مع شهر رمضان انه جاء في الشتاء وهي تعطش في الشتاء أكثر مما تعطش في الصيف ، مشاكلها مع أبي انه يغافلها كل يوم ويستحم ويصاب بالبرد . مشكلتها الثانية معه أنه لا يأكل ، تشكو لكل أبنائها أن أباهم لم يعد يستسيغ طعامها الجيد . لا تفهم أن الرجل قد صار بعد عشرتها الزوجية من الزاهدين . لا يأخذ الإكرام عندها غير صورة واحدة هي الأكل . .

وتفهم أمي كلمة رمضان كريم على نحو واحد .. رمضان كريم لأن الناس تأكل فيه أضعاف ما تأكله في أي شهر آخر ، وعندما تضع أمي أمام ضيفها طبق البوراني أو محشي ورق العنب ، فمعنى وضعها الطبق أمامه أنه يجب أن يأكله كله . والويل له إذا ترك في طبقه شيئاً ، إنها تلاحظ انصرافه عن الطعام فتزيد له الكمية في الطبق . وترجوه أن يأكل ، فإذا رفض أمرته أن يأكل ، فإذا قاوم لعنت أجداده . وانخرطت في شكوى عميقة لهذا الجحود الذي يقابل به الناس إحسانها إليهم ، ووقوفها الساعات أمام النار ، ولا يجد الضيف مناصاً من التسليم والتهام طبق البوراني أو محشي ورق العنب عن آخره . وهم يقولون في الأمثال

ان الطبيخ نَفَسْ ، بفتح النون وفتح الفاء وتسكين السين ، هناك شيء لا علاقة له بالمقادير أو النار أو المادة الخام . شيء مجهول هو الأسلوب ، شيء هو مزيج من الشخصية الفنية الخاصة والتجارب القديمة ، ويخرج الطعام من يدي أمي وله رائحة عطرة تدفع حواسك نحوه ، وقد لاحظت طوال عمري أنني لا أشرب الماء بعد الطعام ، إلا إذا أكلت في بيت أمي . إن حريقة لطيفة تندلع في جوفي ، وأبدأ في احتساء الماء ، ولما كان الله قد جعل من الماء كل شيء حيّ . ولما كنت أشرب الماء وراء طعام أمي ، فهذا معناه ان طعامها حي . عمل فني حي ، عمل فني أعظم من مسرحيات الإذاعة والتليفزيون ومؤسسة المسرح .. وصلت إلى بيت أمي . السيدة العجوز صائمة ونائمة . والصيام عند الكبار يختلف عن صوم الشباب . يحس الشباب في الصوم بنوع من التحدي لرغبات الجسد ، ويشعرون بشيء من الرياضة اللطيفة التي يثبتون بها لأنفسهم قوة الإرادة ، عند الكبار يتغير مفهوم الصوم . إنه تعامل مباشر مع الخالق فقد اقتربنا منه وتشير كل الدلائل إلى أننا نغذ السير نحوه . والصوم عبادة جماعية يجد المرء لذتها في اشتراكه مع الآخرين في معاناتها ، والعجائز يقاسون من مرحلة تفرضها عليهم ظروف الحياة ومشاغل الأبناء ، وأقسى شيء أن تصوم سيدة عجوز وحدها في بيت عدد حجراته ست ، إنها تحس على الفور بوحدة ثقيلة وخوف غامض . ولو كان الموت هو انقطاع الجسد عن الطعام والشراب والتنفس ، فإن الصوم انقطاع عن الطعام والشراب .. وهكذا تولد فكرة الموت في أذهان الكبار عندما يدخلون صراعهم مع الصوم ، والمفروض أن يحس المرء عند اقترابه من خالقه بالحنوّ وتمتد شفقته إلى

كل مخلوقاته ، غير أن العكس هو الذي يحدث دائماً ان الإنسان يكبر فتكبر عصبيته وتزيد نرفزته وتصبح أقل حكة على أنفه كافية لإثارة ثائرته .

كم يختلف صوم العجائز عن صومنا . يستغرق الكبار في صومهم ويفكرون بطريقتهم ويحسون كلما مضى نهار أنهم يقتربون من هدفهم . وتختلف أهداف الكبار في الصوم ، هناك من يصوم لأن الصوم يريح معدته ، وهناك من يصوم لأنه تعود الصوم منذ شبابه ، وهناك من يصوم لأنه لا يمكن أن يكون عجوزاً ويفطر . ورغم تعدد الأسباب الظاهرية واختلافها فإن كل واحد منهم يصوم في نهاية الأمر خوفاً من خالقه ، يتسلل الخوف إلى الإنسان عندما يحس ذات يوم أنه كبر ولم يعد كما كان ، وعندما يصوم الكبار يشتد إحساسهم إرهافاً بالذنب والخطيئة . وإما أن يفكر الصائم العجوز في خطاياه هو ، وإما أن يفكر في خطايا الآخرين . ولما كان هو نفسه عجوزاً لم يعد يذكر خطاياه ، ولما كانت ذنوبه منطقة ألغام مضببة يخاف أن يسير فوقها ، فهو لذلك يفضل أن يفكر في خطايا الآخرين ، وهكذا يجلس صاحب البيت العجوز تحت بيتنا ، ويبدأ في التعليق على ملابس الفتيات وتصرفات الأولاد وتوجيه انتقادات إليها ، ومن أصعب الأشياء أن يكون المرء محامياً يقف جوار الضعف البشري ، يحتاج ذلك لمستوى عالٍ من الفهم والحساسية والمشاعر والحب ، ومن أسهل الأشياء أن يختار دور الظالم ويصدر أحكامه بغير أن يدرك الظروف أو يسأل عن الوقائع .

يجلس صاحب البيت العجوز تحت بيتنا وهو يصرخ :

ـ القيامة حتقوم ..

● زعلان ليه يا حاج ؟

ـ العالم فسد .. شوف البنات لابسين إيه .. أستغفر الله العظيم .

في إحدى المرات نهض الرجل العجوز الذي تعدى التسعين من عمره وتقدم نحو فتاة ترتدي الميني جوب وأمسكها من أذنها وراح يشد أذنها .

فاجأت حركته الفتاة في مبدأ الأمر .. التفتت إليه ورفعت يدها لتضربه متصورة أنه شاب يعاكسها .. ثم فوجئت أنه شيخ محطم جاوز التسعين ، والتف الناس حولهما . قال الشيخ العجوز وهو يترك أذنها وينصرف عنها :

ـ القيامة حتقوم خلاص .. ما عدشي دين .. أستغفر الله العظيم .

هذا العجوز نفسه ضبطته يسأل شيخ المسجد عن عدد الحور العين في الجنة ، سبعون ألفاً .. وكيف يجد الإنسان القوة يا مولانا .. يعطيه الله القوّة .. ما شاء الله .. أنعم وأكرم .. ما شاء الله .. وهل ترتدي الحور العين الميني جوب أم ماذا .. أعرف أنه لم يسأله السؤال الأخير . ولكنه تردد في نفسه .

أجلس في بيت أمي صامتاً حتى تستيقظ ، هذا هو البيت الكبير كما نسميه . من الغريب أنني أسميه بيت أمي ولا أقول بيت أبي ، رغم أن أبي هو سيد البيت ، غير أن سيادته تأخذ شكل الصمت والزهد . أما أمي فتصدر كمية من الضجيج يصبح من اللازم بعدها أن ينسب البيت إليها .

وبيت أمي بيت مصري من الطراز الأول . إنك تجد فيه هذا الحزن الجميل والنكد القديم الذي عرفته إيزيس حين أصاب رب الخصب ما أصابه ، وهو بيت تجد فيه هذه الضحكات العظيمة الساخرة التي يعقبها قول الضاحك «اللهم اجعله خيراً» ، إشارة إلى بؤس هذا الشعب وإحساسه أن الضحك ليس من حقه ، وهو بيت تجد فيه كنافة تذكرك بكنافة جارية عبد الملك بن مروان ، وهو بيت تجد فيه قطايف تذكرك بقطايف ابن نباتة الشاعر المصري القديم المشهور بدناوته ، وهو بيت تجد فيه أرزّاً مخلوطاً يذكرك بأمجاد الخديوي إسماعيل ومآدبه ، وهو بيت تجد فيه معاملة للشغالة تذكرك بمعاملة المماليك للشعب المصري ، وهو بيت تجد فيه القهوة المحوجة ، والماء المعطر بالزهر ، إلى جوار الشكوى المستمرة من اختفاء أصناف من السوق ورداءة أصناف أخرى ، وهو بيت مصري قديم وتقليدي بكل متناقضاته وعظمته ونكده وأفراحه .

استيقظت أمي فعرفت أنها استيقظت من ضجيجها في المطبخ .. اكتشفت أن صرصوراً طفلاً يصعد على حائط المطبخ . ولو أنها اكتشفت طائرة إسرائيلية على حائط المطبخ لما أحدثت ضجة كالتي أحدثتها ، وطرقعت طلقات الشبشب على الحائط وبدأت نرفزة الصيام ، وانهالت أمي تتحدث عن انعدام الرقابة وسوء المتابعة وضعف الأجهزة وانعدام الضمير ووفاة الذمة ورحيل الأخلاق والفساد المستشري العام . وجاءت سيرة أبي في الحديث فهو المسؤول باعتكافه عن كل الفوضى التي تقع ، ونهضت أهدئ أمي فقالت لي :

ـ روح يا شيخ . حمد الله عا السلامة ، بتجيلي لما أشحتك وأكلمك

تلاتين مرة في التليفون . بكره أمك تموت وتبقى تندم على أنك ما كنتش بتزورني .

هجوم ساحق يا أمي لكنني آخذك في أحضاني وأقبلك وأضحك على عقلك بكلمتين مثلما يفعل الرجل العاقل دائماً ، أصدرت أمي سلسلة من التعليمات السريعة التي قصدت بها تهيئة كل شيء في مكانه . وبدأ إعداد المائدة قبل الطعام بساعة . وضعت السلطات ووضع الخبز ووضع قمر الدين ليبرد على البوفيه ، تأملت أطباق قمر الدين وقد رصعتها حاجة رمضان الكريم .

يسير أبناء الفرنجة فوق القمر . وأمر بيدي على قمر الدين فما أعظم الفرق بين حضارتين .

قالت أمي :

ـ أريدك في كلمة ! !

جلست معها في جلسة مباحثات مغلقة لم تحضرها زوجتي ولم يحضرها أبي . أعرف أنها ستشكو لي من آلاف الأشياء ، وستوجه إليّ مئات الأوامر والتعليمات ، سحبتني وراءها مثل طفل وجلسنا في غرفة المسافرين ، الغرفة لا تفتح في العام إلا مرة أو مرتين .. قالت لي أمي ، وهي في جلسات المباحثات تتكلم وحدها وعلى الحاضرين الاستماع فقط ..

قالت : (مقدمة) رمضان كريم يا ابني وكل سنة وانت طيب . (طلب رئيسي) أريد أن أحج هذا العام .. إبحث لك عن طريقة . لا تقل لي انهم يختارون بالقرعة فهذه نمرة قرعة . (مجاملة) انت موظف كبير ولك أصدقاء فلا تقدم حججاً واهية وأعذاراً سخيفة .

(جملة اعتراضية) لو كان أبوك هو الذي يريد أن يحج لقلبت الدنيا من أجله ونزلت على رغبته .. أنت نذل وتحب أباك أكثر مني وتخاف منه أكثر مني (طلب آخر) القرفة موجودة والجنزبيل موجود والمستكة نادرة والفلفل غال وجوزة الطيب أغلى .. لكن ما هي حكاية الحبهان والشطة . أين ذهب الحبهان من السوق . اسأل لي غداً في الغورية إذا ذهبت . (ملحوظة) الولد ابنك الكبير يحب بنت خالته وهذا للعلم فلا تشتمه أمامها أو تقوم بتهزيئه ، لا تقل له انني حدثتك . (طلب صغير) هل لك صديق في السوق الحرة ، نريد لفة قمر الدين فقد كاد ينتهي ما اشتريناه منه . (رجاء) وبالمناسبة لا تكلم سنيّة بعد اليوم فقد دخلت عليها في فرح سعاد فقامت لي كل النساء وسلمت هي عليّ وهي تجلس بمنتهى الوقاحة . (باب الشكاوى) ابحث لك عن طريق لأسلوب أبيك الجديد في معاكستي . زهد في الأكل وأنا أقف الساعات أمام النار من أجل من ؟؟.. لماذا لا تتصل بالصحف ليكتبوا عن القطايف التي صغر حجمها وعن الكنافة التي يغشونها ..

استمرت المباحثات مع أمي بينما كانت رائحة الطعام تتصاعد من المائدة ، وداخل رأسي كانت المؤامرة تختمر .. قطعاً سنجد هنا قمر الدين . ويا حبذا لو سرقنا منه لفة أو نصف لفة .. لكن كيف ؟؟؟

زيارة الحسين

قال الحاج الجنايني وهو أكبرنا سناً وأعظمنا حكمة وأدرانا بالتقاليد :

ـ نسهر في حي الحسين هذه الليلة .

رمضان بغير الفيشاوي بحر بغير سمك . هناك يشتري كل واحد منا مسبحة جديدة ، وعصا ، وقليلاً من البخور ، وفلاية من خشب الليمون تذكاراً لمن نحب . الميدان الفسيح الجميل الذي كان يحمل مذاق قاهرة الفاطميين تغير هذا العام وكل شيء في الدنيا يتغير . أحياناً إلى الأفضل وفي معظم الأحيان إلى الأسوأ . منذ عام ونصف كنت تذهب إلى قلب الميدان مباشرة ويسقطك التاكسي أو تقودك قدماك إلى مسجد الحسين . وهناك تقرأ الفاتحة لابن بنت رسول الله ، وتذكر استشهاده في سبيل الله وتذكر أجدادك الذين قرأوا له الفاتحة مثلك ولم يمد إليه أحدهم يد المساعدة وهو يقتل . ندخل على أقدامنا فنحن ولله تعالى الحمد والمنة لسنا من أصحاب السيارات الذين يكدحون ويكدحون من أجل شراء سيارة والاستغناء عن الأوتوبيس والترام ، بعدما صار إليه أمر الأتوبيس والترام وبعد أن صار جزاء من يركب أحدهما هو جزاؤه ..

على يسار المسجد شريط ضيق هو الأثر الوحيد الباقي من الحي القديم . قال أكبرنا سناً وأعظمنا حكمة وأدرانا بالتقاليد :

ـ نبحث عن مقهى الفيشاوي ..

ومن قبل كنا نقول نذهب إلى مقهى الفيشاوي فسبحان مغير الأحوال ولا يتغير . بدأنا بحثنا عن مقهى الفيشاوي بالسؤال عنه ، وأي مجتمع مصري تسأل عن شيء أو طريق أو حاجة فلا يتقدم إليك من يعرف وإنما يتقدم إليك من سمع السؤال من باب الشهامة وإنقاذ الغريب . وكانت الإجابات الصادرة متضاربة ومختلفة فمن قائل : سيروا إلى اليمين ، ومن ناصح أن اتجهوا إلى اليسار ، ومن واثق أن علينا أن نعود إلى الخلف . عندها قررنا البحث عن الفيشاوي بأنفسنا .. ثمة مزيج غريب من الباعة . يباع كل شيء هنا سواء خطر لك على بال أم لم يخطر . حب العزيز يسافر من طنطا إلى الحسين احتفالاً بشهر رمضان ، وباعة السبح يكونون جيشاً هائلاً لو اصطف حول القاهرة لصنع ثلاثة وثلاثين صفاً . والسبحة ليست من الدين ولكنها تقليد ووجاهة ، انها تخلع عليك صفة الرجل المحترم المتدين الفاضل الذي يصلي الفرائض ، ويصوم لربه ، ويعرف دينه ، ويسلم الناس من أذاه . لا عليك لو اشتريت هنا مسبحة رغم أنك تصوم تقليداً ولا تصلي ولست متديناً ولا فاضلاً . لا عليك مثلنا ولنشتر هذه السبحة الحمراء التي سوف تنطق على البدلة الرمادي الغامقة . عثرنا أخيراً على الآثار التاريخية لمقهى الفيشاوي . ثمة رصيف له يهدم بعد وقد غطته المقاعد والمناضد . فلول الباعة تمر وسط الجالسين في المقهى . الرحمات تنزل على مقهى الفيشاوي القديم . لم أكن أحب المقهى القديم لكنني

كنت أذهب إليه شبه مسحور . كان المقهى ذاته قديماً ومتهرئاً عمره مائة وخمسون عاماً ويمتلئ بآلاف الأشياء الغريبة مثل الصواني الفاطمية والبراويز المملوكية والتماسيح المحنطة التي لا يعرف سوى الله وحده كيف جاءت من أدغال أفريقيا وعلقت نفسها في سقف المقهى وراحت ترمق الجالسين بنظرات مرعبة من العالم الآخر .

كان الناس يحبون مقهى الفيشاوي وكانوا يزورونه دائماً . هو المكان الوحيد الذي يمكنك أن تسهر فيه للصباح دون أن يسألك أحد لماذا تسهر ، وكان المقهى يضم نماذج غريبة من الخلق . تجد الوزير والفنان والهارب من العدالة جوار قطة الليل التي أنهت نمرتها وجاءت للبركة . تجد الأفاق والمتدين واللص والمجذوب والسائح جوار رجل جاء يتفرج على هذا كله . وكان زوار الفيشاوي وهو ولي من أولياء القهوة والشاي ، يزيدون عن زوار أي ولي من أولياء الله الأصليين ، وكان الفيشاوي صاحب سمعة عالمية ، ومثل الحي اللاتيني في باريس ، وحي سوهو في لندن ، وحي هارلم في نيويورك ، كان حي الحسين في القاهرة . وهم يحافظون في كل دول العالم المختلفة التي ذكرناها على الأحياء القديمة ويمنعون فيها الهدم ويعاقبون عليه ويرممون الآثار لتنشيط السياحة ، أما هنا فقد قرر أحد العباقرة هدم الفيشاوي القديم وبناء فيشاوي جديد .. ومات صاحب المقهى من الحسرة حين جاءه النبأ وبدأ الهدم . هذا الجزء القديم من القاهرة ترتفع فيه اليوم أعمدة خرسانية مسلحة في نظام يشبه نظام البواكي التي تذكرك بثكنات الجيش الانجليزي في قصر النيل ، وكم كانت كئيبة ومقبضة . وتسأل ما هذا الذي يبنونه . ويجيبونك انه فندق سياحي شرقي لطيف . يقف مؤذن

مسجد الحسين ليؤذن أمام سائحة تقف في الشباك الغربي وهي ترتدي المايوه البكيني ، أعطني عقلك يا سيدي وقل لي أليس حل هذا الإشكال أصعب من اشكال الكلمات المتقاطعة . جلسنا في الشيء الذي كان مقهى الفيشاوي .. وطلبنا الشاي والشيشة .. قال أكبرنا سناً وأعظمنا حكمة :

ـ نريد أن نتسحر بالفول إحياء لمجد قدماء المصريين فأين ذهب أبو حجر ؟؟

تطوع الخلق وأشارت الأيدي إلى مكان يمتلئ بآثار الهدم وتضاربت التصريحات :

ـ انهد محله فأقسم ألا يبيع الفول حتى يتم بناء محله الجديد .

وقال رأي آخر : محله هناك في الجهة المقابلة .

قال رأي ثالث : هاجر إلى كندا وليس له محل هناك .

قال أكبرنا حكمة : نأكل اللحم إن استطعنا على حساب البيك ..

وأشار إليّ ، فدافعت عن نفسي وقلت :

ـ نأكل الأرز باللبن أو نشرب قمر الدين ..

ضحك الجالسون حين ورد ذكر قمر الدين ضحكاً مجلجلاً . خدعتك الباعة بهذا الشراب الأصفر المعروض ، ليس هذا قمر الدين كما كتب أحد الكتاب في إحدى الصحف ، هذا برتقال وجزر بالنشا ، ولو أخذنا النشا لقمر الدين لم يبق نشا لياقات القمصان فاختر لنفسك ما يحلو . تحب أن نأكل أم تحب أن نسير أولاً قبل أن نأكل .

قال أصغرنا سناً وأنشطنا سيراً وأبعدنا عن وجع المفاصل وآثار الشيخوخة :

ـ بل نسير قبل أن نأكل ..

نسير في حيّ الحسين قبل أن نأكل ، كم تغير الميدان وكم تغير مدخله ، تلتقي أول ما تدخله بحاجز حديدي متهاوٍ وعجيب الشكل والخلقة فهو ينثني جهة اليسار من يمينه ، ويميل جهة اليمين من يساره ، يمنع الحاجز السيارات من دخول الميدان . وجوار الحاجز كأكأة وزحام وكلام وسيارات وباعة ومسابح وبخور . يمتلئ حي الحسين بأغرب نماذج تفرزها مدينة عريقة كالقاهرة وتنبسط الغرابة على الناس والباعة والأشياء المباعة .

عجوز تبيع فوانيس رمضانية في حجم علبة الكبريت . فوانيس من البلاستيك . من أي مصنع غريب رايق جاءت هذه الفوانيس . إنها فكرة عبقرية وثمن الفانوس قرش صاغ واحد . وداخله براغيث الست . تأكل الحلوى وتلعب بالفانوس بقرش . هناك من يبيع بخوراً من جاوه . وهناك من يبيع كلاباً يتيمة قتلت أمها في المذبحة الأخيرة للكلاب . وباعة السبح أكثر من السبح .

كم تغير ميدان الحسين . لا أقصد السنوات الأخيرة . أعني الأيام القديمة الطيبة . على أوائل هذا القرن كانت القاهرة تحتفل برمضان احتفالاً مهيباً . كان عدد المشايخ يكاد يقترب من عدد البيوت ، وكل بيت في رمضان يشرفه شيخ يقرأ القرآن . أما الذين لا يملكون القدرة على دعوة شيخ فكانوا يذهبون لحي الحسين ، وهناك كانوا يجدون بغيتهم من سماع القرآن والإنشاد الديني والتواشيح . وكان الفقهاء يتبارون في التغني بمحاسن الشهر وفضائله ، واشتهر من المنشدين والمقرئين والصبيته : الشيخ أحمد ندا والشيخ إسماعيل سكر ، وكانت الأصوات

قديماً قوية مجلجلة ، كان الزمن قبل اختراع الميكروفون أو دخوله مصر بمعنى أصح . وذات ليلة وقف الشيخ أحمد ندا يغني أحد الموشحات في مديح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان يغني في صيوان جوار بيت فيه فرح ... وكان صاحب الفرح قد أحضر المزيكة الميري وهي موسيقى نحاسية توقظ الموتى لو دقت ، ودقت المزيكة وبدأ الشيخ أحمد ندا في مديحه :

جل من طرز الياسمين فوق خديك كالجلنار

ويعلو صوته ويعلو صوت المزيكة ، ويبدأ كل واحد من الصوتين في تحدي الآخر . ويهزم صوته صوت المزيكة ، حتى يرسل إليه صاحب الفرح من يقول له :

ـ والنبي يا شيخ ندا تاخدلك شوية راحة ما احناش سامعين المزيكة من صوتك ..

ويمر الوقت على حي الحسين فيصبح في شهر رمضان مدرسة فنية لا بد أن يجتازها الشيخ القارئ أو رجل الدين أو المنشد قبل أن يصل للشهرة . مدرسة تزدهر فيها المشايخ وتحتدم المنافسة بينهم من أجل إنشاد أفضل ، وكان أعظم منبع تستمد منه هذه المدرسة هو الطرق الصوفية ، فقد كان لكل طريقة منها إنشادها وأذكارها ومشايخها المغنون . وتتعاقب على حي الحسين أوقات الفرح . كما تتعاقب عليه أوقات الحزن ، وإذا كان المنشدون والمغنون يصهللون في أوقات الفرح فإن الشعراء يزدهرون في أوقات الحزن . لم تكد الحرب العالمية الثانية تبدأ حتى بدأ الغلاء وعم وطم ، وحرم المصريون من كثير من طيبات الطعام الأثيرة عندهم ، ووقف المرحوم الشاعر محمد الأسمر في شهر

رمضان ينشد وسط أصدقائه في حي الحسين :

ضاقت النفس في الكنانة ذرعاً فإلامَ الغلاء في الأثمان

كل شيء غلا فليس رخيصاً في الورى كله سوى الإنسان

قيل شهر الصيام آتٍ فقلنا نحن شعب يصوم في كل آن

نحن لسنا نصوم في العام شهراً واحداً ، بل نصوم طول الزمان

وتنتهي الحرب العالمية الثانية ويعود رخاء نسبي ، ويأخذ شهر رمضان في الحسين شكل هذه الأطعمة التي تذهب وتجيء وتسمى بأطعمة رمضان أو حاجة رمضان ، ويكتب المرحوم حسين شفيق المصري يصف الحي بقوله :

سترى كل ما تحب وترضى من صنوف الطعام في رمضان

من كباب وكفتة وفطير وكنافاً متقونة في الصواني

واذكر المشمش البديع خشافاً بزبيب له أعض لساني

وإذا ما شربت من « قمر الدين » فخذه في صفرة الكهرمان

ويتقدم الوقت ، وتدخل في مياه النصف الثاني من القرن العشرين ، ويبدأ حي الحسين في الذوبان ، لا يبقى من المقاهي القديمة العامرة بالغناء والانشاد والشعراء وليالي الحظ غير مقهى الفيشاوي . لا يبقى من الدكاكين القديمة التي كانت تبيع الخشاف والحلوى غير دكاكين تبيع الأنتيكات ودبل الفضة وكراسي الجمال ، ثم يجيء أمر الهدم لما بقي من الحي القديم ، ويبحث شاعرنا الساخر عبد السلام شهاب عن شهر رمضان في حي الحسين بكلمات تقول :

لم أدر هل هو شهر الصوم حل بنا

أم شهر أشياء أخرى غيره ابتدعوا

شهر الكنافة أم شهر القطايف أم
شهر المعارض فيها تنفق السلع
دع ما ادعاه فريق من مشايخنا
عن فتة ولحوم قد حوت قصع
عين ابن آدم يا ولداه فارغة
والميل عن أبويه فيه منطبع
ألم يبع أبواه جنة عظمت
بأكلة ما بها ري ولا شبع

تتعاقب الذكريات على المرء وهو يمضي متسكعاً في حي الحسين ، منذ سنوات والناس تزور الحي في رمضان لتتفرج على الناس ، كانوا قديماً يزورونه للفرجة والاستماع وأكل الفتة والخشاف واحتساء قمر الدين . ترى لماذا سموه قمر الدين ، لماذا لم يسموه قمر الدنيا ، ما علاقة هذا المخلوق الأصفر ذي الخد الوردي الكهرماني بالدين ، ما هو الحادث الذي وقع في حياة قمر وكانت له علاقة بالدين فالتصق الاثنان وصار اسمه قمر الدين ..

وجدنا رجلاً يبيع الفول فتقدمنا نحوه بقلب جريء وصدر جامد ، أكلنا وحمدنا الله وسألنا عن الحساب فقال : سبعة وستون قرشاً .

- لماذا يا سيدي الفاضل ؟

قال : طبق الفول بخمسة قروش ونصف .

- لأي سبب يا سيدي غير الفاضل ؟

قال : هذه أسعارنا ..

قلنا : هذه سرقة .

قال : هي أسعارنا السياحية ..

قلنا : ما شاء الله وهل ترانا خواجات . هل رأيت في يد أحدنا منشة أو على رأسه طربوشاً ..

نحن أبناء هذا البلد فأدركنا برحمة أبناء البلد ..

قال : نحسبه لكم بأربعة قروش وهذا آخر كلام ، وعليّ الطلاق من صيامي لو نزلت كلمتي الأرض ..

دفعنا واتجهنا لمسجد الحسين . نصلي الفجر ونستمع للقرآن ونحاول أن نسلب من أوقات الذنوب وقتاً صغيراً للطاعة ..

....

في مسجد الحسين شيء يشبه الروح والريحان . ثمة عطر خفي مجهول لا تعلم مصدره أو أصله . ليست هذه رائحة بخور . ليست رائحة المسك الذي يمسحون به ضريح الحسين ، هذه رائحة أغلب الظن أنها رائحة عنبر الحوت الذي ابتلع سيدنا يونس عليه السلام فنادى من جوفه في ظلمات بطن الحوت وظلمات الليل وظلمات البحر .. «فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين» . وربما كانت رائحة دم الحسين الشهيد . يحدثنا نبينا عن الشهداء الذين يجيئون يوم القيامة وجراحهم تسيل دماً ، اللون لون الدم والريح ريح مسك .

صافحتني رائحة المسجد أول ما دخلت . ودخل صدري اطمئنان أفتقده . ان نوعاً من أنواع السلام يغمرك . أنت في بيت من بيوت الله . جئت ضيفاً على الله .. فهل يخزي الله ضيفه أو يرده بغير إجابته لما سأل .

ـ السلام عليك يا سيدنا الحسين . عسى ألا يؤذي مثلك سلام مثلي . رضي الله عنكم آل البيت . قرأت له الفاتحة . وصليت ركعتين تحية للمسجد ، ثم جلست .. لاحظت شيئاً على زوار المسجد . ان معظم الزائرين طعنوا في السن . نعم يا رب .. نطعن في الذنوب ونطعن في السن فإذا انهدت قوانا وغربت حيويتنا واشتعل الرأس شيباً جئناك . استمتعنا بالدنيا وجئناك نبحث عن متعة الآخرة . نريد الاثنين معاً ونطمع فيهما معاً فما أعظم الحيوية .

بدأ قارئ المسجد يرتل القرآن . أعيش وسط صورة عمرها أربعة عشر قرناً . صورة محمد بن عبد الله في غار حراء . وجبريل عليه السلام يحدثه .. اقرأ . اقرأ باسم ربك الذي خلق .

أليس مدهشاً أن تكون أول كلمات الإسلام «اقرأ» أليس هذا موحياً بأن الله تعالى يفتتح عهد الرشد العقلي وعهد التقدم العلمي . هكذا فهم المسلمون في صدر الإسلام دينهم . فهموا أنه يبدأ بدعوة إلى القراءة . والدعوة إلى القراءة دعوة إلى المعرفة . سئل الصوفي الزاهد رويم عن أول فرض افترضه الله عز وجل على خلقه ما هو ؟ فقال : المعرفة ، لقوله تعالى «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» قال ابن عباس : إلا ليعرفون .

هكذا فهموا القرآن في صدر الإسلام . هو دعوة إلى المعرفة . دعوة تعني خضوع المادة للإنسان وخضوع الإنسان لخالقه . وحين يؤذن المؤذن بقوله الله أكبر فذلك يعني أن كل شيء عداه صفر . لا يستحق العبادة ولا السؤال ولا القصد ولا الزلفى ولا الملق ولا النفاق .

راح القارئ يقرأ . ركزت ذهني وأنصت إليه . أحسست أن الخشوع

داخلي ينسحب تدريجاً ويحل مكانه نوع من الطرب . خيّل إليّ أن الشيخ يحاول توصيل الكلمات للناس بشكل غنائي جميل ، وكانت هذه الغنائية هي المسؤولة عن إحساسي بالطرب بدلاً من الخشوع ، قلت لنفسي هذا قارئ لبق . انه يبدأ من مقام الرصد ويعطف على أقرب المقامات إليه . وكلما توقف الشيخ قال له الناس .. الله الله يا سيدنا .. وثمة رجل قال : والنبي تخلي بالك منا يا سيدنا . ولم أفهم ماذا يقصد .. نحن نستمع لكلمات الله ولا نستمع لمطرب يغني . وكلما توقف الشيخ عن القراءة ، كان الدرويش المبخراتي يهتف بصوت قوي .. اللهم صلي على النبي .. اللهم صلي على حضرة النبي ويمد نغمة الكلمة الأخيرة . حتى تصطك ذبذبات صوته بأبعد حيطان المسجد وترتد كالدبابيس إلى صدور الناس . لماذا يقول النبي أولاً ثم يقول حضرة النبي بعد ذلك . لماذا لا يقول حضرة النبي مرتين . يا مولانا يا صاحب المبخرة . نصلي على النبي بعد كلماتك ، لأن الله تعالى يقول بالأمر «صلوا عليه وسلموا تسليما» غير أن لكل عبادة وقتها . وما تفعله أنت تشويش على معاني القرآن . عاد الشيخ يقرأ القرآن . وتذكرت الشيخ زكريا أحمد . كم قرأ لنا القرآن زمان . كان الشيخ زكريا أحمد رجلاً تقياً يعرف الله . بدأ حياته بقراءة القرآن وانعقد له لواء التلحين بعد ذلك . وكان إذا صفت نفسه في شهر رمضان ، جلس يقرأ لأصدقائه آيات من كتاب الله فأبكاهم من الخشوع . دخل يوماً أحد المساجد يستمع للقرآن وكان الشيخ يقرأ آية من آيات الوعيد الرهيبة ، كان يقرأ قوله تعالى : «خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه» وكان

الحاضرون يقولون الله الله في انسجام غريب يمتلئ بالرضا والفرح ، وفسر لنا الشيخ زكريا أحمد سر طرب الناس بآية من آيات التهديد المهول ، قال : إن كثيراً من المشايخ لا يراعون أي مقام يرتلون به القرآن . هناك من يقرأ آيات النذير والوعيد بمقام السيكا . وهو مقام يوحي بالفرح ، أي انه يؤديها بأسلوب يثير مشاعر الفرح ، ويخالف معنى الآية ، ثم يجيء نفس هذا الشيخ لآيات البشرى مثل حديثه تعالى عن الجنات التي تجري من تحتها الأنهار فيقرؤها بمقام الصبا وهو مقام يوحي بالحزن .

وهكذا لا يبلغ الشيخ من نفوس سامعيه إلا حواس الطرب ، بينما يضيع عليهم المعاني في الحالتين ، ولا يعطي الآيات حقها من الأداء الصحيح ، وهو أداء يزرع الخوف من آيات الوعيد ، ويملأ النفوس بالبشرى في آيات التبشير .

استمعت للشيخ . لاحظت أن الناس تستمع إلى أدائه ولا تستمع لمعنى ما يقول ، وكلما زاد إحساسه بنفسه ، زاد من تلوين صوته وانساب به جميلاً مستعرضاً متنقلاً بين المقامات . وراح الناس يهللون : الله الله يا سيدنا الشيخ ، والله يكرمك وخلي بالك منا .

قال تعالى : «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله» فما بالنا نستمع إلى القرآن فنهتز اهتزاز من يستمع لحفل غنائي . قال تعالى : «وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون» . نستمع ولا ننصت وإنما نهيص تهييص ناس جمعهم حفل عرس .

قلت في نفسي وأنا أتضاءل : اللهم اغفر لنا مجلسنا هذا ..

مدَّعي التصوّف

كنت خارجاً من المسجد حين اصطدمت به .. ولم أعرفه في مبدأ الأمر من لحيته التي أطلقها ، وملابس الشيخ التي يرتديها ، عهدي به أنه أفندي . كان زميلاً من زملاء الدراسة . وكان زميلاً من زملاء الروتين الحكومي في مصلحة أخرى ، وفرقتنا الحياة كل في اتجاه ، لم يكد يراني حتى أقبل يحتضنني ويقبلني .

أين أنت يا رجل . مضى زمن على اللقاء الأخير . كيف حالك والأولاد ، كان واضحاً من لهفته أنه يريد أن يقول لي أشياء لا يستطيع حملها وحده من فرط الفرح . كان ينوي دخول المسجد ، فلما رآني خارجاً منه سار معي قليلاً ، وأدهشني تصرفه ، ثم زادت دهشتي حين لاحظت أن خلفه ناساً يتبعونه . كان أحدهم يحمل عصا ، والثاني يحمل حقيبة ، والثالث يحمل مسبحة ، وهم يسيرون جميعاً وراءه .. يحتفظون بالمسافة بينهم وبينه ثابتة ، ملت على أذنه وهمست له :

ـ هل أنت مطارد ؟

ضحك بكل صدره وقال همساً : هؤلاء أتباعي . لقد صرت شيخاً لطريقة.

قلت له : غريب .

قال وهو يفرد قامته الضخمة ويمد يده للحيته في حركة مهيبة :

ـ ما غريب إلا الشيطان ، مات أبي في الريف وكان شيخاً لطريقة فصرت شيخاً لطريقة ، عدد أتباعي يقدرون بالألوف ، أفضل من الإرث وأفضل من الوظيفة . .

سألته : كنت موظفاً في الحكومة .. هل تركت وظيفتـ ....

قاطعني وهو يخفض من صوته :

ـ ضربتها بالحذاء القديم ذي النعل المستصلح من كاوتش سيارة على المعاش ، استغنيت عنهم وعن قرفهم ، يجب أن تزورني ، ثمة احتفال صغير نقيمه في البلدة كل ليلة ، أنت ضيف الشرف في هذا الحفل لو حضرت أي يوم ، ستأكل الفت والقطايف وتحضر حلقة ذكر لطيفة ، سوف تشهد الآلاف يقبّلون يدي ، تصوّر هذه اليد التي لم تمتد نحو أي خير ، ستراها وهم يقتتلون عليها من أجل البركة . يجب أن تقبّل يدي لو جئت .

قلت لنفسي أذهب إليه يوماً وذهبت ..

في طريقي إليه تراءى لي بيت الشعر الذي يقول :

أما الخيـام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها

ما أبعد الفرق بين التصوف اليوم والصوفية القديمة ، قديماً كانت الصوفية حرقة في القلب . ثم صارت اليوم خرقة على البدن ، قديماً كانت اسماً لحال يقع فيه العبد الزاهد ، ثم صارت اليوم رسماً لموقف يدعيه ، كان الصوفي أبو عمر الزجاجي إذا كبَّر للصلاة تغيَّر لون وجهه وشحب ، سئل لماذا يتغير لونك ، قال أخشى أن أفتتح صلاتي بخلاف الصدق ، فمن يقول الله أكبر وفي قلبه شيء أكبر منه أو قد

كبر شخصاً سواه على مرور الوقت ، فقد كذب نفسه على لسانه .

رحمك الله يا أبا عمرو ، لم يدركك زمان يقف فيه الشيخ للصلاة فإذا كبر بدأ يحسب في رأسه أن الفت زمانه نضج ، وان القطايف زمانها استوت ، فإذا هو يخطف صلاته خطفاً ويهرع إلى الطعام حيث يتأنى هناك .

رحم الله الإمام أبا القاسم القشيري تلميذ الصوفي أبي علي الدقاق . يلاحظ القشيري في القرن الرابع للهجرة أن جوانب كثيرة في الفرق التي تزعم أنها صوفية ، قد دبّ إليها الفساد ، وسلك بعض المدّعين مسالك لا تمت إلى الدين ولا إلى التصوف بصلة ، كما هو الشأن دائماً في المدعين المزيفين الذين يوجدون في كل عصر وفي كل مصر . أشفق الإمام القشيري على القلوب أن تحسب ان أمر التصوف قد بنى قواعده على ما يرونه من فساد ، أو صار سلعة كما يشهد الناس من خيبة الأحفاد ، فشمر عن ساعد الجد ، وكتب الرسالة القشيرية ، ولولا ذلك ما عرفنا أي نبل وعظمة كانت عليها حياة الصوفية الحقيقية .

....

وصلت السيارة إلى مكان الحفل ، فاقتادني الرجال إلى شيخ الطريقة ، البيت الريفي الضخم يضم عدداً كبيراً يزيد على الألف ، ونحن نمر من حجرة إلى حجرة حتى نصل إلى حجرة سر الأسرار . أو كبيرهم أو شيخ الطريقة أو صاحبنا في المدرسة والوظيفة . نهض واقفاً حين رآني أدخل الغرفة فانتصب الرجال واقفين احتراماً .. مدّ إليّ صديقي يده فسلمت عليه ولكنني ـ من فرط هيبة النصب ـ وللنصب في بلادنا هيبة ، ألفيت نفسي أنحني عليها وأقبّلها . كدت

أضحك وأنا أفعل ثم تمالكت نفسي ، وأجلسني جواره وهو يهمس ضاحكاً في أذني :

ـ سأوصي لك بالمشيخة بعد أن أموت فليس عندي ولد ولا بنت .

بدأت مراسم الحفل بأن وقف الشيخ المنشد ومعه عصا معدنية وفي يده مسبحة معدنية . وبدأ يضرب على العصا بالمسبحة في إيقاع ذاكر لطيف . ثم بدأ إنشاده بقوله :

من كتر حبي في النبي أنا سبت أشغالي ..

من كتر حبي في الحبيب المصطفى أنا سبت .. أنا سبت أشغالي .

وانفرط المنشد في مونولوج طويل يتحدث فيه عن حبه للنبي وتضحياته من أجل هذا الحب . تحدث أنه ترك أشغاله وترك عياله وترك الدنيا ولم يعد له من عمل إلا الحب . دهشت في نفسي من حلاوة صوته ورداءة معانيه ، أيمكن أن يحب هذا الشيخ المدّعي حب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما كان يحبه أبو بكر أو مثلاً عمر ، وكلاهما لم يترك أشغاله من أجل النبي ، بل مكثا حتى آخر لحظة في حياتهما يأكلان من عمل أيديهما ، بعدها بلحظات بدأ الشيخ يغير من نغمة الإيقاع ، وزاد من سرعته ، فنهض الجالسون جميعاً باستثناء شيخ الطريقة واستثنائي ، بدأوا يهتزون يمنة وهم يقولون .. الله .. ثم يهتزون يسرة وهم يقولون .. الله .. ثم زاد الشيخ الذي يمسك لهم الإيقاع من سرعته فازدادوا سرعة ، ولم تعد تستطيع أن تميز كلمة الجلالة التي ينطقونها وهم يترقصون ، إنما هي كلمة أهاه التي تميزها منهم ، وأضاف أحد الأتباع مزيداً من البخور الهندي في المدفأة فعبقت الحجرة بأنفاس جزيرة جاوه المعطرة ، وسال العرق على جباه

الراقصين ، وازدادت السرعة ، تأملت هذا المشهد مثلما يتأمل المرء جزءاً من مسرحية هزلية . أهذا هو ذكر الله عز وجل .

....

إن الشبلي وهو واحد من الصوفية الكبار يدخل يوماً على الإمام الصوفي الجنيد ، يدخل عليه متواجداً كعادة الصوفية . ويسأله الجنيد بغضب صارم وحزم عنيف :

ـ إن كنت في حضرة الله فمن سوء الأدب أن تهتز أو تتواجد ، وإن لم تكن في حضرة الله فبماذا ظفرت حتى تتواجد ؟.

ويهتف الشبلي ساعتها :

ـ التوبة يا إمام .

....

استمر الذكر على أنواع مختلفة . واستمر الإنشاد يعلو ثم يهبط ، وكان صاحب العصا المعدنية كلما لاحظ إجهاد الرجال أبطأ في الإيقاع حتى يتيح لهم فرصة للراحة . أحسست بالجوع الشديد . فقلت لشيخ الطريقة وصديق الدراسة :

ـ أنا جعت ..

قال : من صبر ظفر .. لم يأت أخطر ما في الحفل بعد . لم تأت الفتة ..

صرخ بصوت ممطوط .. وحدووووووه .

سكت المنشدون والذاكرون والراقصون وقالوا :

ـ لا إله إلا هو ..

قال صديقي شيخ الطريقة : من قالها دخل الجنة .. .

وكأنما كانت كلمته إشارة إلى الطباخين أن يدخلوا ، فانفتح الباب ودخل أربعة يحملون طشتاً من طشوت الغسيل النحاسية اللامعة ، وقد امتلأ بالفتة وهراديم اللحم والبخار يتصاعد منه .

واصطرع البخار المعطر مع بخار اللحم وانهزمت جزيرة جاوه . وضعت الصينية وسط الغرفة . لست أعرف من هو الفيلسوف أو المفكر الذي قال إننا شعب عاطفي . تأكدت من ذلك حين امتدت العيون إلى الفتة ، وراحت تحج حولها ، وتطوف بها ، وتتأملها بنظرات شوق جائع يشحب جواره شوق قيس إلى ليلى .. ومد شيخ الطريقة يده إلى الصينية فامتدت الأيدي بعده احتراماً . وبدأ الهجوم . تأكدت أن هناك علاقة وثيقة بين طريقتهم في الأكل وأسلوبهم في الذكر . ان رنين الملاعق المكتوم في الصينية يصنع إيقاعاً سريعاً يشبه الإيقاع الذي ختموا به الذكر ، ثم أبطأ الإيقاع هنا مثلما أبطأ هناك .. ثم سال العرق هنا مثلما سال هناك .. ثم انثنى الرجال إلى الخلف ومسحوا أيديهم في لحاهم وقالوا :

ـ اللهم أطعمنا من نعيم الجنة ..

وخيل إليّ أنني أستمع وهم يأكلون إلى سيمفونية خاصة .. كلمات هذه السيمفونية ـ وليس في السيمفونيات كلمات ـ ولكنها في بلدنا سوف تخضع لما نريده وتكون لها كلمات ..

كلمات هذه السيمفونية الدراويشي الخاصة من تأليف فؤاد حداد ..

على جبل الشوق الرمضاني
أنا شفت لي قرن خروف ضاني
شايل قصعه

تنتني وراه ساعتين أسعى
وأخيراً جت في أحضاني

* * *

من حبك يا أبيض مابانامشي
تقريباً ما تقريبانشي
قدامي أمامي وأنا بامشي
يا أنجرفت أنا ما اتلفت
لغيرك أبداً في زماني

* * *

شمرت ولايق تشميري
وحياة الكم الكشميري
ومزاجي كأنه معاش ميري
في ميعاده يوافي يزيدني عوافي
ياخدني لفوق
على جبل الشوق ..

* * *

وزرعت عيوني الشتاله
في الرز تلالا تتتالى
ويا ريح الخل إذا عقلي اختل
حيعدله عمي الكنفاني

* * *

وفردت النية المتنية

بالمـــرقة مـــريئـــاً وهنيـــا
مبتسمة ودسمـــــة ونـورانيـــة
ثم التعمـيرة هـــديـة أمـــيرية
في غايـة الذوق
على جبل الشوق

بعد انتهاء الفتة .. قال صديقي شيخ الطريقة :

ـ الحلواء يا ولد ..

قال صاحب الفضيلة الأستاذ علي الجندي في كتابه الجميل الممتع «قرة العين في رمضان والعيدين» قال في الفصل الخامس والعشرين تحت عنوان «أمة حلوة تحب الحلواء» .. قال :

ـ «أمتنا العربية ـ حرسها الله ـ أمة حلوة تحب الحلواء . يقول معمر العرب أبو عبيد ، يقول العرب : كل طعام لا حلواء فيه فهو خداج «يعني فهو ناقص» .

تذكرت هذه الكلمات حين قال صديقي شيخ الطريقة :

ـ هات الحلواء يا ولد . نريك الليلة أنواعاً من الحلواء لم ترها قط في منامك . تحب الكنافة أم القطايف .

قلت : أحب الكنافة .

قال : وضعت حبك في غير موضعه .. ألم تعلم بأن القطايف قالت يوماً للكنافة بيتين من الشعر ، لم تستطع بعدهما الكنافة رفع رأسها .

قلت : غريب .

قال : ما غريب إلا الشيطان . ويقال ان الكنافة بعد سماع البيتين كاد كبدها ينهري من الحسد .

قلت : ماذا قالت القطايف للكنافة ؟

قال : القطايف مذكر والكنافة مؤنث وهذا للعلم ثم أنشد :

قــال القطايف للكنافــة ما بالي أراك رقيقـــة الجسد

أنا بالقلوب حلاوتي حشيت فتقطعي من كـــثرة الحسد

قلت : فماذا قالت الكنافة بعد هذين البيتين يا مولاي ؟

قال : سكتت الكنافة تماماً ... ارتج عليها وخرست ، قيل إنها طقت من الحسد وماتت .

لم يكد الشيخ ينهي كلماته حتى حضرت ثلاث صوان تسبح في السمن والعسل وهي تمتلئ بالقطايف . قال الشيخ وكأنه يجاهد في سبيل الله :

ـ بسم الله توكلنا عليه .

قالها شيخ الطريقة وزام مثل أسد عظيم جائع ومد يده لإحدى القطايف السمينة الحبلى بالفستق واللوز وعين الجمل . ورفعها من الطبق فراح العسل يشرّ منها على ذقنه وهو يتاويها في فمه . ابتلعها الشيخ مرة واحدة وقيل لي همساً :

ـ نربي لحيتنا مثل ساتر يمنع العسل أن يسقط على الجبّة ويلوث الملابس .

لماذا لا تأكل ؟

لم أستطع الرد عليه . كنت في حال من الشبع والإجهاد بعد معركة « الفتة » بحيث لم أكن قادراً على الكلام . أحسست أنني أموت . كان الطعام قد رقد بثقله على قلبي . ولم أعد قادراً على التنفس . وأردت أن أقرأ الشهادتين قبل أن أموت فلم أستطع من فرط الشبع أن أتذكرهما ،

وظهرت أول كرامة من كرامات الشيخ ليلتها حين قال لي :

ـ يا رجل . لن تموت . لا تحدث نفسك عن الموت أبداً وأمامك هذه القطايف .

ألا تعرف ماذا قال جحظة البرمكي أمام إحدى صواني القطايف .. أقول لك ماذا قال .. دعاه أحد أصدقائه للسحور عنده .. ووضع أمامه القطايف .. فلما رآه قد انقض انقضاضاً عمودياً . وكاد ينسفها جميعاً . أوجعه قلبه فحذره من أن يستمر في الأكل ، وراح يخوفه من الموت ، فقال جحظة البرمكي ولم يكن شاعراً ، ولكن الله فتح عليه بثلاثة أبيات من الشعر الخالد . قال :

دعاني صديق لي لأكل القطايف فأمعنت فيها آمناً غير خائف

فقال وقد أوجعت بالأكل قلبه رويدك مهلاً فهي إحدى المتالف

فقلت له ما ان سمعنا بهالك ينادى عليه : يا قتيل القطايف

وهكذا مددت يدي إلى القطايف وبدأت آكل . كانت الحلواء حلوة فعلاً فلم أقاوم . قلت لنفسي ما أغرب حبنا للحلواء . وتراءى لي هذا الموال الذي يغنيه العامة عن مصر ويقولون فيه «أصل اللي بنى مصر كان في الأصل حلواني» . لولا حبنا للحلواء ما تصورنا أن الذي بنى مصر كان حلوانياً ، ولم يكن هو الملك مينا نارمر .

انتهت الليلة وانصرفت . زحفت عليَّ موجة غريبة من الحزن وأنا عائد . جلس جواري أحد أتباع الشيخ يوصلني بسيارة الشيخ الخصوصية . راح التابع يحدثني طوال الطريق عن كرامات الشيخ الذي أعرفه حق المعرفة .

قال لي انه كان يزور مريضاً في يوم فاعترضه مجرىً من الماء فسار

على الماء ، وكان يريد السفر يوماً إلى بنها لمقابلة أحد الأولياء وكان الميعاد قد أزف فطار في الهواء . نظرت إلى التابع بدهشة ، هل يتصور أنني زبون ، هل تبدو على وجهي علائم البلاهة ، كنت أهز له رأسي وأتشاغل عنه بتأمل القمر من نافذة السيارة . كان القمر حزيناً وشاحباً وحوله غلالة من التراب الغاضب . أحس بانتماء القمر لي أكثر مما يحس الذين وضعوا أقدامهم فوقه . كأنني واقع في حبّه ، بينما يتزوج هو غيري ، يا صديقي القمر ، عادت الفرنجة من زيارتك للمرة الثانية ، ولم نتفق كمسلمين على رؤية هلالك ، تنازعنا الأمر فيما بيننا ، فمن قائل ظهر هلاله . ومن قائل لم يظهر ، ومن قائل جاء الهلال منخفضاً فلم يره رادار القلوب ، ومن قائل بل ظهر ورأيناه . أي بؤس . لم يكن الإسلام هكذا حين بدأ ، جرى ذهني للحضارة الإسلامية التي قدمت في شبابها جابر بن حيان في الكيمياء ، وابن الهيثم في الطبيعيات ، وأبا بكر الرازي في الطب ، وابن سينا في الفلسفة والجراحة ، والغزالي في مباحث الروح ، وابن رشد في الفلسفة العقلية ، وابن خلدون في الاجتماع والتاريخ . قلت لنفسي قدمت حضارتنا هؤلاء حين كان أمراء المسلمين يأكلون الخبز الجاف ويغمسونه في الزيت ويبكون لأن في رعاياهم من لا يأكل اللحم . قدمت حضارتنا أساس المنهج العلمي الذي يعتمد على الملاحظة والتجربة ، وصل المسلمون إلى هذا المنهج حين كانوا جادين ، قبل أن ينشغلوا بتجربة القطايف وملاحظة الكنافة ولهط قمر الدين وضرب المسلمين الحقيقيين . لم يزل تابع الشيخ يتحدث معي عن كرامات الشيخ وعجائبه ، التفت إليه وسألته فجأة :

ــ ما رأيك يا مولاي فيمن صعدوا إلى القمر ؟

قال تابع الشيخ : لم يصعد أحد إلى القمر .

قلت : أرسلوا صوراً من هناك .

قال : يكذبون يا بيك فلا تصدقهم .

قلت في نفسي : بمثلك يا عزيزي المشعوذ يبتعد الناس عن روح الإسلام ، وبمثلك سبقنا الذين سبقوا إلى القمر .

وقديماً كان الإسلام لا يرضى من رجاله أقل من مرتبة الإمتياز في كل شيء ، في العلم أو في الديانة ، واليوم يشيع المجاذيب أن من قال «حي» بعد حياة حافلة بالذنوب دخل الجنة .

ورد في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» . ولفظ القوة عام ينبسط على العلوم والفلسفة والتاريخ والآداب والحروب وكل شيء ، هو دعوة كاملة إلى القوة ، دعوة بغيرها ينزوي الإسلام وتفقد أعلامه نبضها العظيم القديم الموحي .

حدث هذا زمان بينما يدعو المجاذيب اليوم بقولهم : «اللهم اشغل الفرنجة بالعلم لكي نتفرغ نحن لعبادتك» .

وهذا أقسى أنواع الإساءة إلى الدين ، رحم الله أيام الصدر الأول من الإسلام ، رحم الله أعظم أيام مرت في تاريخ البشرية .

نعست بقية الطريق في السيارة .

هو نوم الغم والكمد والله أعلم .

لقاء إبليس

مثل ضوء أخضر خاطف أحسست أنه موجود . شعرت فجأة أن معي في الغرفة شيئاً أو شخصاً ما .. لم أكن قد حددت بعد هل هو شيء أو شخص . لم أرفع رأسي من أوراق الكتاب الأصفر الذي أقرأ فيه . كان الكتاب من كتب السحر القديمة المهترئة ذات الأوراق الصفراء . وكنت أقرأ في الصفحة السابعة والستين عن الشيطان حين أحسست أنه هناك . يجلس على الكنبة المواجهة وباب الغرفة مغلق .. كيف دخل . لست أعرف . رفعت رأسي فرأيت رجلاً يصعب تحديد عمره . ملابسه من نوع يوحي بأنه كان من أصل طيب ثم جار عليه الزمن .

سألته بخوف : أنت هو ؟

قال بأدب : إبليس .

قلت : لو قرأت آية من القرآن هل تنصرف .

قال إبليس : لو قرأتها بصدق .. أنصرف على الفور .

قلت : هل تحرقك الآية .

قال إبليس : لكي تحرقني الآية ، يجب أن تعمل بها أولاً .

قلت : لن أقرأها . أريد أن أتحدث معك . كيف دخلت . أقصد

كيف جئت . أعني هل أنت موجود فعلاً فوق الكنبة أم في ذهني فقط .

قال إبليس : لا تعقد الأمور . أنت موظف فعلاً . هذا تفكير موظف . ذهنك جزء من المادة والكنبة جزء من المادة ، ولا فرق بين ذهنك وقالب الطوب في الرصيف المكسور أمام منزلك .

قلت : هذه نكتة في لغتنا . تقول إن عقلي مثل الحجر . هل تمزح معي ؟

قال إبلبس : أنا لا أمزح أبداً . لم أضحك من يوم ان طردت من السماء .

قلت : يدهشني مجيئك المفاجئ . يقال انك تدخل السجن في رمضان ؟

قال إبليس : ليست المسألة بهذا التحديد الإنساني المطلق .. شهر رمضان هو شهر الإجازة الصيفية بالنسبة لي مثل شهر أغسطس عندكم .. يقلّ العمل طوال الشهر . ليست الدنيا كلها مؤمنة كما تعرف . ونحن لا نكف عن العمل . على العكس لقد زادت أعباؤنا ومشاكلنا .

قلت : فرصة طيبة جداً أنني رأيتك . من زمن وأنا أحلم أن أدردش معك .

قال إبليس : أنا ضجر مثلك وأريد أن أدردش ، رأيتك تكتب مذكرات فاطر تحت عنوان مذكرات صائم فقلت أزورك .

قلت : التقت رغبتنا في الدردشة .. في حياتك آلاف الأشياء الغامضة التي أحب أن أعرف جواباً لها ؟

قال إبليس : ليس في حياتي شيء غامض . الغموض صفة إنسانية .

قلت : أتعتقد إذن أنك واضح .؟

قال إبليس : كل الوضوح .. لقد أعلنت رفضي منذ البداية .. أعلنته أمام الله .. هل يجرؤ أحدكم من البشر أن يعلن رفضه أمام أي سلطان حقير من سلاطين الأرض ، أي شيء تراه غامضاً فيّ ؟.

قلت : إننا نقدر صراحتك كثيراً ، لكنك بعد ذلك تتخفى في آلاف الأشكال والصور ولا تتقدم بهذا الوضوح للناس .

قال إبليس : هذه أصول المهنة .. تكنولوجيا الوسوسة .. لقد تقدمت العلوم فهل تريد أن أقف مكاني ليسبقني الخير .. أي شيء تحب أن أوضحه لك بعد ذلك .....؟

قلت : وجودك ذاته .. هل أنت موجود أمامي فعلاً أم مجرد فكرة في رأسي .

قال إبليس : أيهما أهم ، أن أكون موجوداً في الدنيا ولا تعرف أنت عني شيئاً ، أم أكون موجوداً في ذهنك وليس لي وجود خارجه ..

قلت : تسأل أسئلة غريبة .. هل أنت جسد أم فكرة . .

قال إبليس : أنت مجادل كأبناء عدوي القديم .. في الدنيا آلاف الأجساد بغير أفكار ، هل تعتقد أن لها أي قيمة .. وهناك أفكار ليست لها أجساد اليوم .. وربما تتجسد بعد ألف سنة أو بعد لحظة .

قلت : أنت تتفلسف عليّ .. لماذا لم يرك أحد من أبناء آدم ؟

قال إبليس : هل يرى أحد من أبناء آدم موجات الصوت وهي تجري في الفضاء .. هل ترون الموجات التي يلتقطها الراديو .. لماذا لا تنكرونها إذن ؟

قلت لإبليس : كثيراً ما فكرت في طفولتك .. هل كانت لك طفولتك مثل كل المخلوقات .. متأسف .. أقصد مثل كل الأفكار .

قال إبليس : لكل مخلوق طفولته .

قلت : كنت طفلاً شقياً ؟

قال إبليس : على العكس .. كنت أهدأ الأطفال في مدرسة الجن الابتدائية المشتركة .. كانت أياماً جميلة .. تعلمت فيها الكبرياء منذ نعومة أصابعي .

رفضت أن أجيب على امتحان في الحساب ذات يوم . سلمت ورقتي سوداء بغير إجابة . سألني الممتحن : هل تدري حل المسائل ؟. قلت : أعرف حلها . قال : لماذا لم تجب إذن ؟. قلت : أنا خير منه .. من الممتحن الذي وضع أسئلة الامتحان . هذه أسئلة ساذجة لا تكشف عن شيء .

قلت لإبليس : وأخذت صفراً في الامتحان .

قال : لم أكن مهتماً بالنتائج .. كان أخطر ما يهمني ساعتها أن أسجل موقفي من الممتحن .

قلت لإبليس : نسيت أن أسألك أهم سؤال . لماذا رفضت أن تسجد لآدم ؟

تقلص وجه الشيطان بألم رهيب حين ذكرت أمامه اسم آدم . وشجعني شحوب وجهه المفاجئ على الاستمرار في الحديث فقلت له :

ـ لقد أوحلتنا في الدنيا وضيعت علينا الجنة وأفقدت نفسك مستقبلك في ذات الوقت . سأعتبرك صديقاً وأرفع التكليف وأقول لك : الله يلعنك فقد تسببت في إخراجنا من الجنة .

قال إبليس : لسانك طويل شأن أبناء آدم . ولا أعتبر نفسي صديقك ، إنما أعتبرك من أتباعي حين تتبعني . ولهذا سوف تجدني

آسفاً لعدم إمكان السماح لك برفع الكلفة وإهانتي .. وإذا لم تقدّم لي اعتذاراً على الفور فسوف أنسحب .

قلت : يا سيد لوسيفر ، يا طاووس الجن السابق . أنا آسف ، لم أكن أعرف أنك بهذه الكبرياء المخيفة ، وتنقصك روح الفكاهة لهذا الحد .. لقد كنت أهزر معك يا إبليس .

قال إبليس : أرجوك أن تضيف كلمة سيد إلى اسمي ولا تنطقه مجرداً . لقد كنت سيداً حقيقياً قبل خلق أبيك الأول .

قلت لإبليس : هل تعتقد حقيقة أنك أفضل منه . أقصد سيدنا آدم .

قال : سيدك أنت وحدك .

قلت : لم تجب عن سؤالي .

قال إبليس : مسألة أيّنا أفضل ، أنا أم آدم ، مسألة فصل فيها خالقنا . وهي مسألة معقدة بالنسبة لي ، قبل خلق آدم كنت مشروعاً جليلاً . بعد خلقه وصدور الأمر بالسجود له صرت مشروعاً يختلف . صرت فكرة تتبع آدم .. صرت فكرة مناوئة .

قلت لإبليس : أضعت مستقبلنا وبسببك خرجنا من الجنة .

قال : بسببكم طردت من رحمة الله .

قلت : لماذا لم تسجد فتريحنا وتريح نفسك ؟

قال : كنت أجرب حريتي .

قلت : كان الله سبحانه يستطيع أن يحولك إلى تراب قبل أن ترفض السجود لآدم .

قال : لو أن الله قتلني قبل أن أرفض السجود لعرفت أنه يحبني ، غير أنني أعرف أن الله لا يحبني . الله يعطي الحرية لكل مخلوقاته . من يحبهم ومن يكرههم . ليس الله سلطاناً من سلاطين الأرض الظالمين الذين يحبسون من يرفض أوامرهم . الله أكبر وأعظم .

قلت : هذا كلام مؤمنين يا سيد إبليس . هل بلغ نفاقك هذا الحد . أن تكون شيطاناً وتتكلم بكلام المؤمنين ؟

قال : لست منافقاً . لو كنت منافقاً لسجدت لآدم . أنا مؤمن بالله ولست مؤمناً بآدم . من كان في مثل مكاني لا بد أن يؤمن بالله لأنه رأى عظمته ، غير أنه يعتبر كافراً حين يعصي أي أمر لله . يختلف معنى الإيمان من جنس إلى جنس . بالنسبة للجن هو مفهوم معيّن ، وبالنسبة لأبناء آدم هو مفهوم آخر . عندنا نحن الجن . نؤمن بوجود الخالق لأننا نعاين قدرته ولا نستطيع المماراة أو إنكاره . عندكم الإيمان بالغيب . والكافر عندكم هو الذي ينكر وجود الله أو يعبد معه غيره . والكافر عندنا هو من يعصي لله أمراً ، وعندكم العصيان له توبة تجعله كأن لم يكن . وعندنا العصيان فصل نهائي من رحمة الله ولا توبة فيه .

قلت : أخرجتنا من الجنة .

قال : أفهم تفكيرك البيروقراطي .. هل كنت تريد أن ترث الجنة . هل تتصور أن الجنة تكية للموظفين الكسالى والمجاذيب الراقصين .. كم أود أن أضحك . غير أنني عاجز .

قلت : لماذا لا تضحك ؟

قال : لا أعرف كيف أضحك . فمي لا يطاوعني على الضحك .

تجمدت ملامحي عند الإشراف على البكاء ولا بكاء .

قلت : سوف تعذرني في توجيه هذا السؤال إليك .. إنه سؤال محرج .. لماذا تختار دائماً هذه المهنة السخيفة .. أقصد موضوع النساء والرجال .. و .. أنت تفهم قصدي .

قال : تأكدت الآن أنك لست ذكياً ..صدقني .. ليس هذا عملي . أنا شيطان في الدرجة الثانية .. هذا الذي تتحدث عنه من عمل الشياطين الكتبة في الدرجة الحادية عشرة . الشياطين الظهورات . هم المكلفون بموضوع المرأة .

قلت : غريبة . عندكم درجات وروتين مثلنا ؟

قال : عندنا درجات وروتين .. وقد اشتد الغلاء ولم أنل علاوة منذ ثلاثمائة سنة . وأنا مظلوم .

قلت : لماذا يبدو في عينيك هذا الوهج المتكبر الحزين ؟

قال : لأنه لا أمل لي في رحمة الله .

قلت لإبليس : لم أقدم إليك شيئاً .. هل تشرب شيئاً . شاي . قهوة . جنزبيل . قرفة .

قال : مشروبات تقليدية .

قلت : ليس عندنا قمر الدين . أنت تعرف صعوبة الحصول عليه .

قال : أنا الذي سميته قمر الدين .

قلت : دوختني من أجل البحث عن سر تسميته بقمر الدين . أخيراً فهمت . لكن لماذا منحته هذا الاسم . ما هي علاقة قمر الدين بالدين . ولماذا يشربه الناس في رمضان ؟

قال : لا علاقة له بالدين . هذه تسمية تجارية . أما لماذا يشربه الناس في رمضان فهذا سؤال توجهه إلى الذين يشربونه في رمضان .

....

....

أشعلت سيجارتي ورحت أرقب إبليس .

كان قد استراح في جلسته وبدأ يتصرف كأنه في بيته . وضع ساقاً فوق ساق وعقد يديه على صدره وراح يتأملني بنظرات حزينة . نوع غريب من الحزن الذي لا يمكن فهمه إنسانياً .

ما أغرب هذا المخلوق المسمى إبليس .. ظرف ابن آدم انه يتعامل مع الخير والشر ، مع الفضيلة والرذيلة ، لطفه أنه واسع الأفق ، أما إبليس وأبناؤه فجامدون رجعيون لا يتعاملون إلا مع الشر ، من وجهة نظر واحدة . ويستطيع ابن آدم مهما يبلغ من شروره أن يقول :

ـ لقد بكيت يوماً خوفاً من الله .

أما إبليس فلا يستطيع أن يذكر لنفسه عمل خير واحداً .

أخفيت مشاعري داخل عقلي وقلت لإبليس :

ـ يتحدث الناس عن انتشار الشر هذه الأيام . أريد أن أعرف منك هل يزيد الشر أم ينقص ؟

قال : يخضع الشر لقانون العرض والطلب . أحياناً يزيد وأحياناً ينقص . في كل زمان يقول المصلحون ان الشر قد زاد .. ويقول المفسدون أن الشر قد نقص والاثنان على خطأ .

قلت : تبذل مجهوداً ليزيد الشر .. هذه مهمتك .

قال : نحن نعرض ما عندنا من بضاعة . الكفر والشرك والنفاق

والكذب والسرقة والرشوة والموضة وركوب الأوتوبيس .. إلى آخر الشرور . نعرض ما عندنا ونتفنن في عرضه ، لكننا لا نجبر أحداً عليه . ليس لنا على الناس سلطان القهر أو الإلزام . قال أبونا إبليس : « ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي» نحن ندعو فقط ، وأمثالك يقبلون على ما نعرض ، إن تهيئة الظروف هي عملنا .

قلت له : ما دمنا نتحدث عن تهيئة الظروف .. فلنعرج على موضوع النساء والرجال وتهيئة الظروف لذلك .

قال : ذهنك متخلف حقاً ومتمركز حول موضوع النساء والرجال . هذه سمة من سمات التخلف العقلي والعاطفي . هذا من عمل الشياطين غير المثبتين على درجة كما قلت لك . هذا موضوع تافه .

قلت له : قد لا يهمك الموضوع لكنه يهمني . هل تمانع في الحديث عنه .

قال : أبداً .

قلت : هل تعتقد أن النساء هن المسؤولات أم الرجال . أقصد هل تظن .

قاطعني إبليس : هل تعرف أنني أعجب أحياناً لنفاق ابن آدم ، وقدرته على مسح ذنوبه في ذقننا نحن ، أو ذقن النساء . يقول الرجل لابنه عندما يكبر : اتلحلح يا ولد وصادق فتاة ولا تكن مثل القفل . ويقول نفس الرجل لابنته : أذبحك لو رأيتك تكلمين أحداً أو تنظرين من الشباك .. يرتكب الرجل ذنوبه فيقول عنه المجتمع انه دبور وجدع ، فإذا أخطأت المرأة مرة واحدة وصمها المجتمع واعتبرت ساقطة ، يتزوج الرجل ثم يسمح لنفسه بالحرية المطلقة .. في نفس

الوقت الذي يطالب فيه زوجته بالوفاء المطلق . لم يزل الرجل في المجتمعات المتخلفة يعتبر ان أخطاءه حلال وأخطاء النساء هي الحرام .

قلت له : تدافع عن النساء كأنك امرأة .

قال : فهمتني خطأ . أنا لا أدافع عن أحد . المرأة والرجل عدوان لي . كل ما في الأمر أن تطور العمر بالشيطان يجعله يضع يديه على أشياء جديدة . مثالها هذا النفاق الذي يحيرنا .

قلت لإبليس : لا يبدو أنك راض عن عملك .. ألا تجد لذة في العمل .

قال : العمل هو العمل في كل مكان .. مسؤوليات ومتاعب . إن مأساتي الخاصة أنني رفضت أن أسجد لرجل ، فإذا بي أصير تبعاً له ولا أشغل نفسي إلا به .. أي بؤس ؟.

قلت لإبليس : لماذا لا تحاول أن تنسى آدم .

قال إبليس : أنسى .. هل جننت .. إن مرور الوقت يزيد الحادث رسوخاً في ذهني ويزيد قلبي وجعاً .. أنا مخلوق لا أمل لي في رحمة الله .. إن فكرة انعدام الأمل في رحمة الله تطلق مواهبي كي أنتقم .

قلت : لماذا لا تفكر في شيء آخر غير الانتقام .. لماذا لا تبحث لك عن هواية تشغل بها وقتك وتتركنا في حالنا .

قال إبليس : هواية .. أبحث لنفسي عن هواية .. إن هوايتي هي السياسة .. إن عالم السياسة بتياراته هو هوايتي .. لقد كان قتل كنيدي عملاً سياسياً شاركت فيه . لقد قتلته مع أكثر من مؤسسة من مؤسسات المخابرات والمباحث والبوليس الأمريكي ورجال الصناعة .

قلت : لا أقصد ذلك .. أقصد أن تبحث لنفسك عن هواية بعيدة عنا ..

قال : الإنسان عملي وهوايتي في نفس الوقت .

قلت : ألم تفكر أبداً يا سيد إبليس في أن رفض أبيك السجود لآدم كان مقدراً من قبل ومعروفاً .

قال : تقصد الوجه الثاني من المأساة .. اللعنة .

قلت : لا أفهمك .

قال : هذا ما أفكر فيه طيلة الوقت .. كان الله يعلم أنني سأرفض السجود .. سأتحول إلى الشر المحض . لو علمت أنا أن الله يعلم بما سيكون فربما كان لي تصرف آخر .. المأساة أن الله يعلم ما بنفسي وأنا لا أعرف ما في نفسه .

قلت : أكنت تحلم بأن تخدع الخالق .

قال : لقد تصورت أنني خدعته بعبادتي آلاف السنين حتى وصلت إلى مرتبة الوقوف مع الملائكة .. كنت واهماً .. كان يعرف أن في نفسي خيطاً من الرياء وأنا أعبده .. كان يعرف أنني أعبده لأترقى . لم أكن أعبده لذاته .. إنما عبدته بسبب ما تمنحه العبادة من كبرياء ومجد .. كان هذا شيئاً لا تعرفه زوجتي ولا يعرفه أصدق أصدقائي .. كيف عرفه الخالق ..

قلت : يقولون في الحواديت أنك ضحكت على عقل حواء فأقنعت آدم بالأكل من الشجرة .

قال : أنا لا أعرف حواء . لقد أقنعت آدم .

قلت : كيف ؟

قال : بعثت له موجة تتمثل في شكل سؤال .. لماذا نهاك الله أن تأكل من هذه الشجرة .. من تظلم لو أكلت من الشجرة .. هل تظلم نفسك أم تظلم الشجرة .

قلت : وبعدين .

قال : ولا قبلين .. ظل آدم بعقله البشري يتساءل ويفكر ويحار .. حتى إذا نضج قلت له : إن الله نهاك عن الأكل من الشجرة حتى لا تكون ملكاً خالداً .

قلت له : وصدق آدم ؟

قال إبليس : عيب آدم انه آدم .. طبيعته ركبت من مادة الطين وروحه نفحة من الله . والصراع بين الطين والجلال لا يتوقف .. وليس من الضروري أن يهزم الجلال الطين .. ما أعظم المعارك التي سيخوضها الطين وينتصر ضد أعظم ما في الوجود من قيم .. هذه مهمتي .

قلت لإبليس : هل صدق آدم ان الله نهاه عن الأكل من الشجرة حتى لا يكون ملكاً أو يخلد .

قال إبليس : نعم .. يصدق ذلك آدم .. آدم إنسان .. ومشكلته الأولى انه مخلوق كتب عليه الموت .. والخلود رغبة مشتهاه .. وآدم صنع من الطين .. ومشكلته أنه يريد أن يتحول إلى النور الذي صنعت منه الملائكة .. هذه رغبة مشتهاة هي الأخرى .

قلت : وإذن .؟

قال إبليس : وإذن يصدق .. على الفور .. بلا تردد .. ربما يتردد .. ربما يفكر .. ربما يخاف .. ربما ينشب الصراع في قلبه .. لكنه في النهاية سوف يأكل من الشجرة . آدم مخلوق ليعبد ويعصي .. خلقت

الملائكة لتعبد فقط .. وخلقت أنا لأعصي فقط .. حتى عبادتي القديمة كانت تضاف إلى رصيد السيئات . كانت عبادة الرياء والكبرياء .. اللعنة على كل شيء ..

قلت له : لماذا تقول اللعنة على كل شيء .

قال إبليس : هذه عادة كسبتها من يوم أن طردت من السماء .. طردت مشيّعاً باللعنة وأنا أوزّع لعنتي كرد فعل

قلت : يرسمون لك صوراً بقرون وحوافر ووجه قميء .. لماذا ؟

قال : هذه صور أبناء آدم .. صورة لبعض نفوس أبناء آدم .. هل ترى لي قروناً وحوافر ؟

قلت : أبداً .. هل تعتبرني متطفلاً لو سألتك عن أحلامك ؟

قال : أحلامي .. لا أعرف معنى لهذه الكلمة .

قلت : أقصد آمالك .

قال : ليست لي آمال .

قلت : الجحيم هو المكان الذي ينعدم فيه الأمل .

قال : أنا في الجحيم منذ آلاف السنين . هذا هو الفرق بيننا نحن الشياطين وبينكم ، يرتكب الواحد منكم كل البلايا والرزايا والمصائب ، ثم يبكي ويتوب في مثل هذه الأيام من شهر رمضان ، فيقبل الله توبته ويذهب عملنا هدراً . الذي نبنيه نحن في سنة تقومون بهدمه في العشر الأواخر من رمضان بمنتهى البساطة .

قلت : ألم تبك أبداً ؟

قال : أدفع نصف ملكي مقابل دمعة واحدة .. البكاء توبة ، وباب التوبة قد أغلق أمامنا نهائياً .. أغلقه جدنا إبليس عليه لعنة الله .

قلت : تلعن جدك بهذه البساطة .

قال : نقول عن الميت في عرفنا يلعنه الله كما تقولون في لغتكم يرحمه الله .

قلت له : من هو الإنسان الذي غاظك أكثر في الوجود ؟

قال : أبو نواس عليه اللعنة .. قاسمته حياته ثم وصمني ببيتين من الشعر :

تذكرت ما قاله أبو نواس عن إبليس ..

عجبت من إبليس في تيهه   وسوء ما أظهر من نيته
تاه على آدم في سجدة   وصار قواداً لذريته

قلت وأنا أضحك : رجل ظريف .

قال وهو يكشر : بل رجل سافل .. بعد كل ما فعلته من أجله ..

قلت : بماذا أحسست حين أحرق المسجد الأقصى ؟.

قال : شربت كأساً ودخنت سيجارة .. سررت قليلاً .. مبدؤنا العام ضد المساجد على طول الخط .

قلت : ما رأيك في الذين صعدوا إلى القمر ؟

قال : هم أبناء حضارة صديقة . يؤمنون بالمادة مثلما نفعل . غير أنني لست أفهم سر هذه الضجة الهائلة عن الصعود للقمر .. إن أصغر عيالي يصعدون إلى القمر ويلعبون فيه كل يوم لعبة الاستغماية .

قلت لإبليس : ما هو أخطر عمل تحقق فيه ذاتك ؟

قال : عملنا الأساسي هو إعطاء الناس صورة خاطئة عن الله . هو حمل اليأس إليهم من رحمة الله .. وأجمل عمل أحقق فيه ذاتي عندما يدرسون للأطفال الدين بطريقة صعبة تجعلهم يكرهون الدين .. هل

تعرف أنكم توفرون علينا عملاً كثيراً في مدارسكم .

قلت : أخرجتنا من الجنة .

قال : أخرجتم إبليس من رحمة الله .. ما قيمة الجنة جوار رحمة الله

قلت له : أزعجتك بكثرة الأسئلة .. أراك تتململ .. تريد أن تنصرف .. لكنك لم تشرب شيئاً حتى ولا سيجارة .. بصفتك من النار .. ألا تحب الدخان ؟

أربعين دقيقة

سألت اليوم في المصلحة :

ـ أي يوم نحن في رمضان ؟

قالوا : نحن في اليوم الخامس عشر ، كل سنة وأنت طيب .

يجري شهر رمضان بسرعة الضوء هذه الأيام ، فهل ذهبت البركة من الأيام ، منذ أربعين دقيقة كنت أولد ، ومنذ خمس وثلاثين دقيقة كنت في الخامسة من عمري ، ثمة صورة ضبابية لشاطئ بحر عريض . اللون السائد هو الرمادي .. رائحة ملح وأعشاب ويود . أجلس في سيارة من سيارات الأطفال . أرتدي الصوف من رأسي لأقدامي . تصور هذا البرد الجميل في الخارج وهذا الدفء داخلك . أمي تتمشى بي على البحر . أؤمن أيامها بوجود الله تماماً . لم أكن أعرف أين ولا كيف هو موجود ، غير أنني كنت أتنفس .. وفي مجرد تنفس الإنسان دليل على وجود الله ، هذه الحركة البطيئة التي لا يلحظها أحدنا ، إلا عندما يمرض وينكرش نفسه ، ارتفاع الصدر وهبوطه ، وارتفاع الموج وهبوطه شيء واحد . خالقهما واحد . قطعاً لا يحس البحر العظيم أن هناك موجاً فوقه . انه يتنفس فحسب . لم يكن هناك أنا والبحر والرمال والسماء وأمي .. كان هناك جلال واحد وخالق

واحد . كان هناك الله وحده . لم يزل الجزء النقي في نفسي لم يخدش بعد .

سقطت من النتيجة خمس دقائق . بلغت العاشرة من عمري . ضربتني إحدى الفتيات في المدرسة قلماً على وجهي .. نسيت الآن سبب ذلك . هل أخذت مسطرتها . هل قرصتها في خدها . هل دست على قدمها الجريحة . لا أعرف ما حدث ، غير أنني أذكر أنها سلطت عليَّ الأولاد فراحوا يزفونني قائلين : العبيط أهو .. حتى تمنيت لو انشقت الأرض وابتلعتني من الخجل . الله موجود لأنني توجهت إليه وسألته أن ينصرني عليها وقد حدث . في اليوم الثاني سألها مدرس الحساب عن حل مسألة فلم تعرف . وأوقفني فحللت المسألة ، رغم غبائي المطبق في الحساب . انهال عليها المدرس ضرباً بالمسطرة وعيّرها بغبائها وأشاد بذكائي . كنت متحيراً ومندهشاً لأنني حللت مسألة الحساب . كانت هذه معجزة بالنسبة لي . معجزة لا تقل عن شق البحر لسيدنا موسى . لولا أنني لجأت إلى الله لضعت . ترى أين ذهبت هذه السيدة الآن . هل تزوجت . هل تضرب زوجها ؟ لم يزل الجزء النقي في نفسي لم يخدش بعد .

....

....

سقطت من النتيجة خمس دقائق أخرى . أنا الآن في الخامسة عشرة من عمري . يطلق عليّ أبي اسم الحيوان . انتقلت التسمية إلى المدرسة وعرفني الأساتذة بهذا الاسم . علوم يحبها ابنك وعلوم يكرهها . يجلس ساهماً طوال الوقت في الفصل يحلم . هل هو يحب . كنت

غارقاً في حب درجة حرارته أربعون وثلاث شرطات . أحب فتاة مسيحية . قلت لها يوماً بجدية وحزن :

ـ اسمعي . إن إلهي وإلهكم وإله اليهود واحد .. لأنه ليس هناك غير إله واحد . كل ما في الأمر أن السيد المسيح أقنع والدك ، وأقنع سيدنا محمد والدي . ولم يأخذ أحد رأينا في شيء . وأنا أحبك حباً عظيماً وسأموت على الفور لو لم أتزوجك . يستحيل أن أعيش بغيرك يوماً واحداً . سأحدث أبي في أمر زواجك .

ثنت وجهها جهة اليسار وقالت :

ـ طيب ..

ثم بكت يومها ، وبكيت لبكائها ، وكشر أبي حين حدثته في الموضوع ، وقال يا حيوان ، فهمت سر سرحانك في المدرسة ، ثم انتتر واقفاً وضربني ستة أقلام تاريخية ، بكيت يومها من الألم ، وفرق بين بكاء الحب وبكاء الألم . صليت يومها لله وسألته أن يقنع أبي أنني لم أعد طفلاً ولست شيئاً يمتلكه ، ولست شيئاً يتبعه ، وإنما أنا مخلوق حر ومستقل وذو سيادة . ولم يستجب الله لدعائي ولم أفهم لماذا .. قرأت بعد أن كبرت أن ناساً سألوا صوفياً : ندعو الله فلماذا لا يستجيب لنا ؟. قال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه . صدق الصوفي . لم أكن أعرف الله يومها . الجزء النقي في نفسي بدأ يخدش .

....

....

سقطت من النتيجة خمس دقائق أخرى . كل شيء حولي في الدنيا خطأ وعليّ وحدي أن أقوم بإصلاحه . أبي لا يفهمني ، والمدرسة لا

تعلمنا شيئاً ، والحب ليس هو حل المشكلة . الحل يكمن في المظاهرات. وأقود مظاهرة صاخبة من مدرسة التوفيقية الثانوية . مظاهرة تطالب بطه حسين . لست أعرف أي شيء حدث له . ولا أذكر ظروف المظاهرة . أذكر بعد أن حملني يوسف فوق عنقه أنني رحت أهتف : طه حسين .. فيردها السيل الهادر ورائي . عدت يومها إلى البيت وقد ذهب صوتي وضاعت كبريائي تماماً . ذهب صوتي من الهتاف ، أما كبريائي فقد ضاعت لسبب آخر . علم أبي ، وكان مدرساً في مدرسة قريبة ، أنني أقود مظاهرة . خرج من المدرسة وسأل عن المظاهرة وتتبعها واقتحم المظاهرة وأنزلني من فوق أكتاف يوسف وضربني بالشلوت ، قذفني الشلوت خارج المظاهرة ، سارت المظاهرة في حالها وعدت إلى البيت أسبق أبي بخطوتين ، وهو يحييني كل بضع خطوات بركلة في ظهري . كانت هذه العلقة الساخنة من مدرسة الأمير فاروق إلى بيتنا في شبرا بعد سانت تريز ، أي طوال أربع محطات ترام ، كانت هذه العلقة بمثابة قرار عزل سياسي ، من يومها لم أقترب من السياسة . أيامها كنت أؤمن بالله ، لكنني لا ألجأ إليه إلا قبل الامتحان بأيام . كنت أقول له يا رب لو نجحت هذه المرة فسوف أعبدك كما ينبغي ، ولن أترك فرضاً بغير صلاة ، وكنت أنجح فأنسى وعدي لله . كنت نموذجاً مجسداً لقول الشاعر :

صلى وصام لأمر كان يطلبه — لما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

....

....

سقطت من النتيجة خمس دقائق أخرى . عمري الآن خمسة

وعشرون عاماً .. أحلم بتغيير الكون وأرتكب عديداً من الأخطاء في الطريق لذلك . لا أؤمن إلا بنفسي . لم يعد الإيمان قضية منطقية ، وإنما صار مناقشات عقيمة يخرج منها أصدقائي في النهاية بأنني ملحد .

الجزء المليمتري في عقل الإنسان يسجل ذنوبي . ارتكبت ذنبي الأكبر وتزوجت . حرم الله الظلم على نفسه وجعله محرماً بين عباده ، وقد ظلمت معي سيدة فاضلة . مجرد زواجي منها ظلم لها . واعتباري أنها مذنبة لأنني أريد بنتاً وهي لا تنجب غير الذكور ظلم . الجزء النقي في نفسي لم يعد نقياً .. اعتكر تماماً ..

....

سقطت من النتيجة خمس دقائق أخرى . عمري الآن ثلاثون عاماً .

بدأ الشيب يغزو شعر رأسي برفق ، في الدقائق العشر التالية ، أي بين سن الثلاثين وسن الأربعين ، ارتفع عدد الذنوب من تسعة ملايين ذنب إلى رقم فلكي يقدر بآلاف الذنوب الضوئية . تعلمت من الحياة والكتب كل سيئات الحياة وفضائل الكتب . أمارس السيئات في الخفاء ، وأظهر للناس بوجه الكتب الفاضل فما أعظم نفاقي . بلغ عدد ذنوبي تسعة بلايين ذنب في آخر حساب للعقل الإلكتروني الذي وضعه الله داخل ذهن الإنسان على هيئة خط متعرج في الجمجمة . كل شعرة بيضاء في رأسي توحي بالوقار ، تقابلها آلاف الذنوب . الجزء النقي في نفسي لم يعد له غير وجود رياضي مفترض . البصيص الضئيل الواهن الذي يشعه هذا الجزء على حياتي يضيء ثلاثة أشبار وسط كون مظلم هو أنا . ما الذي أوصلني لهذا الحال .

لست أعرف ما هي نقطة التحول التي أوصلتني لهذا المنحدر .

أنهى عن ارتكاب الذنوب وترابها عالق بثيابي ، أصوم تقليداً ولا أصلي . أمسك المسبحة ولا أسبّح . انطفأ داخلي شيء .. هل هو الحماس أو الإيمان . هل هو الحلم القديم بأننا يجب أن نغير الكون ونصلح ما فيه من فساد . لست أعرف ماذا حدث لي ؟

ثمة حادث قديم يقبع في زاوية معتمة من زوايا الذاكرة . كنت أجلس في المسجد ذات يوم ، منذ أكثر من عشرين دقيقة أو أكثر من عشرين سنة . وكانت الحكومة السعدية قد قبضت على خطيب المسجد ووجهت إليه تهمتين .. الأولى أنه وفدي ، والثانية أنه تحدث عن الحرية ، أشار إلى الحرية حين قال في خطبته «إن الحديث اليوم ذو شجون أو ذو سجون» .

وخلال لهفة الحكومة للتخلص منه ، نسيت تعيين شيخ مكانه . وجاء منتصف الظهيرة من يوم الجمعة التالي ، وامتلأ المسجد بالناس ، ولم يظهر الخطيب .. فرغ القارئ من ترتيل القرآن ولم يظهر الخطيب . وقف أحد المصلين ، وقال :

ـ يا قوم .. من كان يعرف منكم كلمتين في الدين فليخطب لنا خطبة لنصلي وراءه .

لم ينهض أحد . فكرت أن أنهض ثم تذكرت الشاعر الذي دعاه قومه إلى الحرب ، فقال لهم : دعوني فإنني آكل الخبز بالجبن . شدني الجبن فتثاقلت على الأرض ولم أتحرك .

ـ يا قوم .. أليس فيكم من يخطب لنا لنصلي الجمعة ؟

ولم يقم أحد . زرعت هذه الحادثة في نفسي إحساساً عميقاً بالضعة والجبن .. ونهض أخيراً أحد المخبرين المتدينين فخطب خطبة جاهلة

تمتلئ بالأخطاء اللغوية . وأمَّ الناس في الصلاة وأخطأ في تلاوة القرآن ، من يومها ملأني إحساس يشبه إحساس إبليس ، حين رفض أن يسجد لآدم . في اللحظة التي انتهى فيها من رفضه ، كانت فرصته الأخيرة قد ضاعت عليه للأبد . تساءل المصلون يومها عمن خطب ، وعرفوا أنه المخبر وقالوا لأنفسهم من باب العزاء :

ـ دعونا نأكل العيش .. لدينا عيال نربيهم .

أو قالوا :

ـ كفاية دخلتنا على عيالنا .

وهكذا قبع الناس وراء الخوف ، وأذلهم الخوف من الخوف . وفي حياة الإنسان لحظات يدعى فيها إلى موقف فإن أجاب نجا ، وإن لم يجب ضاع نهائياً .

قد يكون هذا الحادث الذي تخليت فيه عن رجل طيب ، هو بداية انحداري ولامبالاتي بعد ذلك .

....

أقول لنفسي في المصلحة هذه الأيام ...

ـ لماذا يختلف شهر رمضان هذا العام عن شهور رمضان القديمة . كنت أجد حلاوة لرمضان في سن العشرين ، ولا أجد له الآن نفس المذاق القديم أو الوهج .. هل تغير شهر رمضان . لم يتغير شهر رمضان . أنا الذي تغيرت ، ازددت ظلمة وسوءاً وخطايا ونفاقاً .

أجلس في المصلحة ساهماً مطرقاً أعالج سكرات الصوم . وللصوم سكرات مثل الموت . ليس هذا التعبير من اكتشافي . هو ابتكار صديقي محمود في الزقازيق ، غير أنه ينطبق عليَّ . ثقل شهر رمضان

على نفسي . لم يعد هو هذا الخروج القديم الجميل حباً في الله وشوقاً إليه .. أذكر في شبابي المبكر أنني كنت أصوم ، فإذا جاء الإفطار حملت طعامي وخرجت أطعمه للكلاب الضالة والقطط ، ثم أفطر على بلحات ثلاث وأتأمل النجوم ، وأحس أن داخلي نجوماً أعظم منها ، ثم تقادم العهد عليّ ، وعرفَت القسوة طريقها للقلب ، وصار الإنسان حريصاً على الدنيا وهي سجن المؤمن خائفاً من الآخرة وهي جنة العارفين .

مضت أربعون دقيقة من عمري ، أو أربعون سنة ، لست أعرف متى أموت ، بعدعشر ثوان أو عشرين دقيقة أو عشرين سنة تبدو كعشرين دقيقة .

العمر كله يوم أو بعض يوم أو ساعة . يسأل الله تعالى بعض الناس يوم القيامة : كم لبثتم في الأرض . «قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم» ثم يقول أمثلهم طريقة «إن لبثتم إلا ساعة» .

هي ساعة واحدة تتردد فيها النفس فأي جرائم يرتكبها المرء في ساعة ، وأي حرص يحرص عليه رغم أنها ساعة .

نظرت في ساعتي فألفيت الوقت يقترب من الثانية .

علقت المسبحة في يدي وانصرفت . أسلي صيامي بالسير في شوارع القاهرة . أعلو ثم أهبط . أرتفع ثم أنخفض .. كانوا يقولون في الحواديت القديمة أن الشاطر حسن يسير .. بلاد تشيله وبلاد تحطهُ . أما اليوم فقد تطور الزمن ، وأصبح الشاطر حسن يسير ومطب يشيله ومطب يحطه . علق أحد المطبات في حذائي فهو معي أينما سرت . أفكر في معنى وجودي .. سألتني اليوم زميلة مفطرة في المصلحة :

لماذا تصوم ؟ قلت لها : صائم أنا لأنني صائم . لم أعرف ماذا أقول .. هل أقول لها انني صائم لأنني بعد أن ارتكبت ملايين الذنوب أريد أن أدخل الجنة ، خشيت أن تضحك عليَّ وتقول : رجل في مثل عمرك وذنوبك يريد أن يدخل الجنة .. قالت رابعة العدوية : «الجنة نعيم الصبيان .. أما أنا ، فأريد وجهك يا رب» .. أحس بنفس الخجل الذي أحست به رابعة العدوية لعكس أسبابها ، هي لأنها شديدة النقاء . وأنا لأنني شديد التعكر .. أمرّ على الجزار في طريقي إلى البيت . الجزار رجل حج بيت الله الحرام أكثر من مرة . وينطبق عليه قول الشاعر :

رأى البيت يدعى بالحرام فحجه   ولو كان يدعى بالحلال لما حجا

ـ اقطع لنا من الرقبة كيلو واتوصى بحق جاه النبي الذي زرته .

قطع الرجل ثلاثة أرباع كيلو واختار ورقة مقواة تزن ربع كيلو ووضعها تحت اللحم ثم ضربها بيده حتى طبت بالعافية :

ـ بالهنا والشفا ..

راقبت الجزار بدهشة . في نهاية يوم الصيام لا بد أن يخرج بسرقات تبلغ مئة كيلو من اللحم .

من الصعب أن يناقشه المرء في موضوع دقة الوزن أو السرقة وهو يمسك بهذا الساطور الضخم في يده ، ويقول :

ـ اللهم إني صائم .

جدي القبطي

أحمل اسماً مسلماً ، وأبي مسلم كذلك . وجدي كان شيخاً من شيوخ الأزهر .. وجد جدي هو إسماعيل وجد جد جدي هو إبراهيم ، ونظل نصعد في سلم الأسماء المسلمة حتى نصل إلى جدي العشرين ، تثبت إحدى الوثائق في عائلتنا أننا ننحدر من صلب قائد عربي شهير فتح مصر . غير أنني بحكم شكي المستمر في الوثائق أتصور الأمر بصورة مختلفة .. أتصور أن جدي كان مسيحياً يعيش في مصر قبل ألف عام ، ثم فتح الإسلام مصر .. وأغلب الظن أنه لم يفكر في الإسلام بمجرد دخوله .

كان يشتغل صانعاً للسيوف والدروع وكان رجلاً مسكيناً يضطهده الرومان ، ويأخذون منه السيوف والدروع ويعطونه نصف ثمنها ، ويأكلون عليه النصف الباقي ، ولم يتفاءل جدي العشرون حين جاءه يوماً رجل عربي مسلم يريد سيفاً ، قال لنفسه : إن الغزاة هم الغزاة في كل مكان وزمان ، وراح جدي بخبثه المصري يؤجل تسليم السلاح ، وفوجئ جدي بالرجل المسلم وهو يدفع له الثمن كاملاً قبل التسليم ، وزاد عليه عطاء سخياً بعد التسليم ، وقبل جدي النقود ووضعها في جيبه . وقال ليلتها لجدتي العشرين : يختلف المسلمون عن الرومان ..

معاملة المسلمين أفضل . وراح جدي يتأمل نماذج الجنود المسلمين الذين يتعاقبون عليه . كانوا يغسلون وجوههم في اليوم خمس مرات ، ويأكلون الخبز الجاف ويغمسونه في الزيت ، ويغضون أبصارهم إذا سارت جوارهم نساء مصر ، ويدفعون ثمن ما يشترونه قبل شرائه ، ولا يحرقون شجرة ولا يطأون بأقدامهم زرعاً ، ولا يشربون الخمر ، ولا يمكن اكتشافهم أو تمييزهم عن أهالي مصر المسالمين الطيبين المتحضرين .

وقارن جدي بين الظلم المرير الذي شربه طوال حياته من الرومان ، وبين هذه العدالة الجديدة التي لا تفرق بين ابن الأكرمين وابن أي شحاذ مصري ..

سأل جدي يوماً أحد الجنود المسلمين :

ـ من هو قائدكم ؟

قال الجندي المسلم : قائدنا كتاب .

سأل جدي : بماذا يأمركم هذا الكتاب ؟

قال الجندي المسلم : يأمرنا بالصدق مع الناس والإحسان إليهم ودعوتهم إلى خالق رحيم واحد .

قال جدي العشرون : لو رفضت دخول الإسلام ، ماذا تفعلون لي ؟

قال الجندي المسلم : لا إكراه في الدين .

قال جدي : عظيم جداً ، لا أحب ضغطاً من أحد .. .

وانصرف الجندي المسلم ، وأسلم جدي أخيراً ، وسمى نفسه اسماً طويلاً على عادة العرب ، عبد الله بن سيف بن درع بن أسد المهدي ، ويبدو أنه أطال اسمه كي يتفق مع طول لافتة حانوته . ومرت الأيام

وفتح الله على عبد الله وتزوج من امرأة أخرى ، وراحت زوجته الأولى تشيع عنه أنه دخل الإسلام بغرض الهروب من الجزية ، فهو رجل بخيل ، وبغرض الزواج من أكثر من واحدة ، فهو رجل عينه زائغة .

ومرت الأيام ومات الحاج عبد الله بن سيف بن درع بن أسد المهدي ، وجاء بعده أدهم بن عبد الله ، ثم تتالت سلسلة الأسماء المسلمة ، وفي حياة جدي الرابع عشر ، اكتشف أن هناك رجلاً يكتب حججاً مزورة تنسب العائلات إلى قائد عربي كبير ، واهتم جدي الرابع عشر بالأمر واستكتب هذا الرجل حجة طويلة وعظيمة ينتهي فيها نسبنا بهذا القائد الشهم ، وجازت الخدعة على الجبرتي فكتب الحجة في كتابه ، وصارت رسمية بعد نشرها .

وحين ذهب أبي إلى الدفتر خانة لتسجيل ميلادي كتب أمام خانة المواليد اسماً مسلماً ، ولم أكن بأيامي السبعة في حالة تمكنني من الإدراك أو المعرفة ، وفي السنة الثالثة من عمري اكتشفت أنهم ينادونني باسم معين .. وحفظت الاسم وتعلمته وصار رمزاً لي . لم يكن لي أي فضل في أنني مسلم . وفي السنة الرابعة من عمري قال مدرس الدين إن الله يعذب الناس بإلقائهم في النار ، وراح يصف لنا ونحن أطفال كيف يشوى الجلد ويستبدل كلما نضج ، وأخافني هذا من الله خوفاً شديداً ، ولم يقربني من الإسلام ، وصحبني أبي للصلاة معه فقال شيخ المسجد : إن الله غفور رحيم وانه أرحم بالمسلمين من الأم بأبنائها ، وأحببت الله حباً شديداً واقتربت من الإسلام ، ولم أعرف كيف أحل هذا التناقض الذي تسببه المدرسة والمسجد .

وفي السنة العاشرة من عمري كان أبي يهددني بالحرق لو رسبت ،

وارتبطت سلطة القهر في ذهني بالدين ، وكبرت أكثر فغذت المدرسة والشارع والمقهى والمصلحة سلطة القهر في نفسي حتى تعلمت النفاق ، وكبرت أكثر وتزوجت وأنجبت وخضت في مياه المجتمع والحياة فساهمت دروس الحياة والمجتمع في تعليمي الكذب .

ثم نضجت وأسميت النفاق بحسن التصرف ، وأسميت الكذب بمراعاة المشاعر ، ورحت أتخلع من حظيرة الإسلام وأنا أتصور أنني أزداد تعمقاً فيها ، صارت لي حياة مزدوجة ، ثمة شيء تقوله وشيء تهمس به ، ثمة لغة عامة للكافة ولغة خاصة بين الأصدقاء ، ثمة شيء نكشفه للناس وشيء نخفيه حتى عن أنفسنا .

أرتبط بالإسلام اليوم بهذه الحجة الطويلة التي تركها جدي الرابع عشر ، وهي حجة تثبت أنني أنحدر من نسل قائد عربي مسلم .. وان الدماء التي تجري في عروقي دماء عربية الأصل .. أنا إذن بخير .

كنت عائداً من العمل إلى البيت حين استوقفني درس العصر في أحد المساجد .. كان الشيخ يتحدث عن قصة سيدنا نوح . كان قد وصل في قصته إلى الجزء الذي يتحدث فيه عن بدء الطوفان .. قال ابن كثير .. وبدأ الماء يغطي سطح اليابس كله . ونادى نوح ابنه وكان في معزل .. يا بني اركب معنا .. قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء . قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .

وتجري السفينة بالنبي في موج كالجبال .. ثم يصدر الله تعالى أمره فينتهي الطوفان وترسو السفينة .. نجا نوح فتذكر ولده .. وجاشت

نفسه بمشاعر الأبوة . لقد وعده الله بنجاته ونجاة أهله معه . وابنه من أهله .

ونادى نوح ربه : قال رب إن ابني من أهلي .. وإن وعدك الحق ..

قال ابن كثير .. يسأله بسؤال الاستفهام .. يعني .. لقد وعدتني بنجاة أهلي ، وابني من أهلي ..

ويجيء جواب الله حاسماً قاطعاً : يا نوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح .

قال خطيب المسجد : يريد الله أن يقول إن روابط الدم ليست هي الروابط المعتبرة . ثمة روابط أقوى هي العقيدة .. هي اتباع العقيدة .. وليس ابن نوح الذي لم يتبعه في ميزان الله بابنه الحقيقي ولو كان من صلبه .

قلت لنفسي وأنا عائد إلى البيت ..

هل أعتبر مسلماً لأنني أمتلك حجة تثبت أنني أنحدر من نسل قائد عربي مسلم ؟

حجة مزورة والله أعلم ! !

توبة العجز

لماذا أفكر في ليلة القدر هذه الأيام .. لست أفهم لماذا يجري ذهني إلى التوبة ..

تمر ليلة القدر في حياتنا مثل وهج من النور العابر يمثل فرصة أخيرة يقدمها الله لعباده ، ودائماً أبداً يقول المسلم لنفسه : لن أترك فرصتي الأخيرة تفلت مني . غير أن فرصتنا تمر بنا دائماً وهي متنكرة في ثياب العمل الشاق . ولهذا نهدرها ونقول : في العام القادم إن شاء الله تعود ليلة القدر . لو كان لنا ولكم عمر ، مدَّ الله في عمركم وعمرنا ، حتى نلتقي بألف ليلة للقدر ، وليلة القدر خير من ألف شهر .

وعلى أيامنا الغابرة ، كانوا يكتبون في كراريس المدرسة عدة إرشادات على ظهر الكراس .. منها مثلاً :

- لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد ..
- اغسل يديك قبل الأكل وبعده ..

ومن الغريب أن جيلنا قد أهدر هذه الإرشادات كلها .. وصار تأجيل عمل اليوم إلى الغد قاعدة أصيلة تكاد تصبغ الشخصية المصرية .

منذ أكثر من عشرين عاماً وأنا أقول لنفسي :

في ليلة القدر القادمة سوف أنتهز الفرصة ، وأعود إلى الله وأتوب ،

وكل عام أؤجل التوبة إلى العام القادم . والعمر يجري ، والنفس تزداد ظلمة ، والتوبة تزداد اقتراباً من الوهم وبعداً عن الرغبة ، وأغلب الظن أنني سأتوب عندما تسقط أسناني ويدب الروماتزم في مفاصلي وتضعف عيناي وتنهار قواي الحسية ، سأتوب عندما أفقد القدرة على ارتكاب المعاصي ، ستصبح التوبة ساعتها على الطريقة المصرية . سأقول أيامها .. يا رب . لن أنظر إلى امرأة ، سأقولها بعد أن ضعف نظري ولم أعد أميز هذه الكتلة السائرة هناك ، هل هي كتلة امرأة أم كتلة حمار يجر عربة .

وهذا الموقف ـ بالصلاة على خير الأنام ومصباح الظلام ـ موقف توبة غير مقبولة . هو عجز وليس توبة .

أفكر هذه الأيام في ليلة القدر . أفهم أنها الليلة التي نزل فيها القرآن . معنى ذلك أن ليلة القدر هي اللحظات التي بدأ فيها اتصال الإنسان بالملأ الأعلى عن طريق القرآن ، وهذا يعني أن ليلة القدر الحقيقية أمامنا في كل وقت .. هي القرآن ، لو اتصلنا به وعرفناه فقد بدأت ليلة القدر الخاصة بنا .

وأنا أعرف القرآن وأتصل به على النحو الآتي : في بيتنا أربعة مصاحف : أولها مصحف كتبه خطاط ماهر في صفحة واحدة ، وأنا أبروزه وأعلقه في مكان لا يمكن للعين أن تصل إليه . والثاني مصحف استانبولي كتب بخط اليد ، وهو مذهب الأطراف موضوع في كيس من القطيفة الزرقاء داخل علبة من القطيفة الحمراء ولها قفل ذهبي جميل . والمصحف الثالث طبع المطبعة الأميرية ، وقد صنعت له زوجتي كيساً جميلاً وتحتفظ به في دولابها للتبرك ومنع السرقة ،

والمصحف الرابع صغير الحجم أضعه دائماً في شنطة السفر ، حتى إذا وقعت حادثة وانقلبت السيارة أو خرج القطار عن الخط ، تدخل المصحف وأنقذني من الموت ، وأنا لا أفتح واحداً من هذه المصاحف الأربعة إلا في شهر رمضان ، حيث أقرأ فيه قليلاً في ليلة القدر ثم يغلبني النعاس فأغلق المصحف وأنام .

هذه هي الصلة بيني وبين القرآن ، صلة التبرك والبركة ، ورغم معرفتي أن القرآن مجموعة من أوامر الله ونواهيه التي يريد مني تطبيقها على نفسي وفي حياتي الخاصة والعامة ، رغم ذلك لا أعامل هذه الأوامر والنواهي بمثل ما أعامل أوامر ونواهي رؤسائي في العمل .. أعترف أنني أجامل الناس أكثر مما أجامل النبي عليه الصلاة والسلام ، وأخشى الناس أكثر مما أخشى الله عز وجل . وأحياناً أتصور أن رئيسي في العمل قال لي :

ـ إعمل كذا وكذا .. ولا تعمل كيت وكيت .

وجئت أنا وكتبت أوامره ونواهيه في ورقة ، وبروزتها ، وعلقتها وراء مكتبي في المصلحة ، رحت أقرؤها له بصوت منغوم وأنا أهتز طرباً .. ثم يكتشف رئيسي في العمل أنني لم أنفذ منها أي أمر ، ولم أمتنع عن أي نهي ، كيف ينظر إليّ هذا الرئيس ، ماذا يقول في نفسه عني .. قطعاً سيفهم أنني أسخر منه ومن كلامه ، وقطعاً سيتحين أقرب فرصة لقطع عيشي وفصل رأسي عن جسدي لو أمكن . لقد أعطاني أوامره لتنفيذها ، ولم يعطني أوامره لتعليقها والتغني بها .

هذه الصورة المضحكة التي لا تحدث منا أبداً تجاه رؤسائنا في العمل ، تحدث منا تجاه الله عز وجل .. فما أعظم شواطئ النفاق

الإنساني ، وما أعمق مياه محيطاته . لي في العمل ثلاثة رؤساء : رئيسي المباشر وهو المدير العام ، وبعده وكيل الوزارة ، ثم الوزير . لا أعصي للثلاثة أمراً ولا أناقش أحدهم ، وأنافقهم قدر استطاعتي .

يقول لي المدير العام : الشغل جيد هذه الأيام .

فأقول له : لا فضل لنا في الأمر ، الأمر يرجع لتوجيهات سيادتكم وحكمتها .

يقول لي وكيل الوزارة : شاهدت الشمس تطلع من الغرب .

فأقول له : تصور سعادتك أن هناك من يشيع أنها تطلع من الشرق . أعداء لسعادتك وكل عظيم له أعداؤه .

أما الوزير فلا أقول له شيئاً ولا يقول لي شيئاً ، إنما تنتابني إزاءه حالة من الرعب التنفيذي الذي يعطل المناقشة ويلغي الإرادة ويرعش المفاصل ويثني الرقبة ويجعل المرء يبتسم كي لا يقع نظر سعادته على وجه مقطب . زارنا الوزير منذ شهرين ومكث معنا ساعة ، لم أكف فيها عن الابتسام حتى وجعني فكي الأعلى وفكي الأسفل بعد أن مضى سعادته .

وإذا قال لي أحد الثلاثة : احضر لي عصير ركب النمل ، أو شعرة من ذقن الأسد وهو حي ، فسوف أفعل على الفور .

هل هو تراب الميري الذي أوصانا الأجداد بالتمرغ فيه ، أم هو الخوف من قطع العيش ، أم هي الرغبة في عدم إثارة المشاكل . لست أعرف تماماً ، وربما تكون الأسباب الثلاثة مجتمعة هي السبب .

يحدث هذا في نفس الوقت الذي لا أنفذ فيه أي أمر من أوامر الله ، وأقول إذا ناقشني أحد أصدقائي في موضوع الصلاة مثلاً :

ـ يا يوسف أنا عاوز أصلي .. مش مش عاوز .. بس خلّلي بالك م الموضوع شوية أكثر . حكاية خمس مرات صلاة كل يوم موضوع صعب . بصراحة حاجة ما بتنتهيش .. حاجة مش بتخلص . الصبح يفوت ييجي الضهر ، الضهر يمشي ييجي العصر ، العصر يروح ييجي المغرب ، المغرب يمشي تيجي العشا .. مش فاضي أنا يا يوسف ومشغول جداً زي ما انت عارف .

ويقول لي يوسف :

ـ فعلاً يا أخي .. ربنا يقويك .

وهكذا يقول الناس للناس : ربنا يقويكم على المعصية .

يحدث هذا رغم أنني لست مشغولاً بأي شيء وليس ورائي أي عمل .. وأوقات الصلاة الخمسة لا تستغرق من الفرد أكثر من ربع ساعة في اليوم لو أطال الصلاة ، وعشر دقائق لو خطفها .. غير أنني أجلس في المقهى بالساعات متأملاً في الحريم التي تمشي أمامنا غير واجد أي وقت أصلي فيه ، مكتفياً بالصلاة على النبي ..

الشرف الرفيع

في اللوائح الحكومية التي تركها الموظفون من عهد الملك مينا نارمر ، لم تكن المقشات التي تصرف لدواوين الحكومة تعتبر عهدة ... واستمر هذا التقليد حتى عصر الملك خوفو ، ثم فكر ديوان الموظفين الفرعوني في عمل تنظيم للمخازن الملكية ، وقرر هذا الديوان اعتبار يد المقشة عهدة مستديمة ، أما المقشة نفسها فقد اعتبرت عهدة مستهلكة ، وصار لزاماً على من يتسلمون المقشات من المخازن الملكية ، أن يسلموا أيديها الخشبية ، وقد انحدر إلينا هذا التقليد فيما انحدر من تقاليد موروثة ، تسرب إلينا مع أربعين الموتى ، ومع اعتبار مياه النيل مقدسة ، ومع أكل البصل في شم النسيم ..

كنت أجلس في المصلحة حين وضع أحد السعاة أمامي طلباً يرجو فيه الموافقة على صرف خمس مقشات لكنس حجرات المصلحة .. بدا لي الطلب طبيعياً ومعقولاً ، فالنظافة من الإيمان ، انحنيت على المكتب لأوقع على الطلب .. ثم تذكرت قبل أن أوقع بإمضائي انني وقعت طلباً مماثلاً منذ أقل من شهر .. وأقنعتني أكوام التراب حولي أن المقشات الخمس التي صرفت لم تستخدم أبداً في الكنس ، وإنما بيعت لأقرب بقال بجوار المصلحة .. قلت للساعي :

ـ أين ذهبت المقشات القديمة ؟

قال : كنسنا بها يا بيك ..

قلت : ذابت خمس مقشات في عشرين يوماً وحولنا كل هذا التراب .

قال : تعرف سعادتك ان الصناعة تتدهور والتراب يشتد ، وسيأكلنا التراب حتماً إن لم نقاومه ..

قلت : أين أيدي المقشات الخشبية التي ذابت .. هل ذاب الخشب هو الآخر ..

قال الرجل : موجودة ولكنها انكسرت ، نحتفظ بها لتسليمها كعهدة .

انخرط الرجل في شكاة طويلة عن الشك والظن ، وأقنعني أن بعض الظن إثم ، وتحدث عن الشرف ، وأقسم بأغلظ الأيمان أنه رجل مسلم وشريف وينحدر من أجداد مسلمين وشرفاء . وكان يفكر وهو يكلمني في البقال الذي صرف له نصف ثمن المقشات التي لم يسرقها بعد . انصرف الرجل غاضباً وتركني وحدي أفكر ..

واثق أنا انه على حق .. انه يعتبر نفسه شريفاً ، ويظن نفسه مسلماً . أما الشرف ، فليس له في عقلنا الضيق المصنوع من الجبس غير مفهوم واحد .. المرأة والجنس .. وما دام الموضوع بعيداً عن النساء ، فهو إذن شريف .. سبقنا الشاعر العربي لتأكيد هذا المفهوم فقال :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

كان الشاعر يتحدث عن المرأة ، لم يكن يتحدث عن إهمال أحد لواجبه ، لم يكن يتحدث عن الرشوة أو الاختلاس أو السرقة .. المرأة

فقط هي الشرف .. غيرها ليس هاماً .. هل هذه أخلاق المسلمين ؟..
أجاب الشيخ محمد عبده عن السؤال حين زار أوروبا في أول رحلة له إليها .. قال بعد عودته :

ـ وجدت عندهم أخلاق المسلمين ولم أجدها عندنا ..

منافقون نحن حتى النخاع ، ومهرة في الكذب على الآخرين ، وأشد مهارة في الكذب على أنفسنا ، يقول لك النجار بعد شهر ، ويقول لك المكوجي بعد ساعة ، ويقول لك الموظف تعال غداً ، ويقول لك البنك بعد عشر دقائق ، ويكذبون جميعاً بلا حياء ، وتؤكد الأمثال العامية ان يوم الحكومة بسنة ، ويؤدي العاملون العمل بنصف روح ، ويكروتون نصفه الآخر عادة ، ويسلمونه متأخراً دائماً ، لكننا نمضغ بأفواهنا دائماً أننا شرفاء .. لماذا .؟ لأن نساءنا بخير .. وإذن فشرفنا بخير .. نتصور أن الشرف شيء واحد هو الجنس ، وليست هي نظرة الإنسان للشرف .. هذه نظرة الجاهلية الأولى للشرف .. في أيام الجاهلية التي سبقت بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان العرب يئدون البنات « وإذا بشِّر أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه مسوَدّاً وهو كظيم » جاءته مصيبة .. جاءته بنت .. ويحملها وهي طفلة لم ترضع بعد ويدفنها في الرمال .. تصديقاً للمثل العربي القائل (دفن البنات من المكرمات) فإن ساءلت الوحش الكاسر الذي يحمل طفلته ويتوجه بها كي يدفنها في الرمال وهي لم ترتكب أي ذنب ، إذا سألته لماذا تقتلها قال لك : لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى .. حتى يراق على جوانبه الدم .

ولقد رفض الإسلام هذا المفهوم الوضيع للشرف ، وأقسم الله تعالى

ان أرواح البنات القتيلات لن تذهب هدراً وإنما سوف تسأل يوم القيامة ..

«وإذا الموءودة سئلت .. بأي ذنب قتلت» ..

ولما كانت الموءودة طفلة لا تعرف كيف تجيب .. طفلة لم ترضع بعد ولم تتعلم الكلام بعد ، فمن الواضح ان تهديداً إلهياً مروعاً ينطوي على سؤالها ... لست أعرف من هو المسؤول عن وراثتنا لهذا المفهوم .. إن الشرف لدينا ليس له غير معنى واحد ، هو المعنى الجنسي ، يقبل المسلم أن يبيع عقله ، ويقبل أن يبيع ولاءه لله ، ويقبل النفاق ، ويتغاضى عن أداء العمل ، ويقصر في واجباته ، ويسرق ، ويكذب ، ولا يصل رحمه ، فإذا حدثته أقسم لك انه رجل شريف ، وجرى ذهنه وهو يتحدث إلى الجنس .. ما دام لم يزن فهو بخير ..

لا ينظر الإسلام إلى الشرف هذه النظرة الجاهلية .. يقف الإسلام ضد كل أنواع الانحلال وأشكالها ، وهو يعتبر بيع الجسد جريمة تقل آلاف المرات عن بيع العقل . وأخطر في رأيه أن يبيع الرجل فكره وعقله للشرك ، أن يعبد المسلم غير الله ، أخطر الخطايا عند الإسلام هي الشرك . والشرك هو الانحلال الفكري الحقيقي ، أن يبيع الإنسان أشرف ما فيه وهو عقله لغير الله .. أو يحب أحداً أكثر مما يحب الله .. أو ينافق أحداً على حساب الله ، أو يؤله أحداً رغم قوله باللسان «الله أكبر» .. هذا هو الشيء الذي لا يغفره الإسلام ، لأن هذه هي الدعارة التي تلوث جو الحياة الإنسانية ، وليس انحلال الجسم بالشيء الذي يساويها في الخطورة ..

قال تعالى : «إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن

يشاء» . بعد الشرك .. يغفر الله تعالى كل شيء ..

ننظر إلى الناس لنرى أي شيء يغفرونه .

إنهم يغفرون كل شيء .. ابتداء من انحطاط الفكر الإنساني وتلوثه بالشرك مروراً بالنفاق والإهمال والكروته .. فإذا وصلوا إلى منطقة الجنس ألفيتهم جميعاً وقد تحجروا وصاروا من كبار الصالحين والمصلحين فجأة ... كثيراً ما سألت نفسي عن السبب ..

والسبب بسيط .. أنانية الإنسان هي السبب .. إن الجنس هو الموضوع الذي يتصل بذواتنا مباشرة ، وحمايته حماية شخصية لنا ، أما إنحلال العقل وبيعه لكل من يدفع أكثر فليست شيئاً يتصل بنا أو يهمنا ، هذا ما يبدو للنظرة الأولى السريعة .. رغم أن انحلال العقل يقود مباشرة إلى الفساد الجنسي .. قيل لجحا :

ـ يا جحا الفساد منتشر في حيّكم ..

قال : ما دام بعيداً عن بيتي فلا أهتم ..

قيل : يا جحا الفساد منتشر في بيتكم .

فقال : ما دام بعيداً عن زوجتي فلا أعبأ ..

جحا الآن هو الذي يفكر ، وهو الذي يملأ أدمغتنا بالحكمة .. ومن المدهش أن يتفق المجتمع على إلصاق الشرف بمفهوم الجنس وحده ، ويثير الدهشة أكثر أن يكون هذا المفهوم ملتصقاً بالمرأة وحدها .. لا يتورع الرجل عن تقطيع السمكة وذيلها ، ولا يعتبره المجتمع ساقطاً .. أما المرأة .. فيكفي خطأ واحد .. خطأ واحد فحسب ليدمغها المجتمع ويصمها إلى الأبد بالفساد .

السر في ذلك مفهوم .. ان الرجل هو الذي يحكم المجتمع في

الشرق ، وهو الذي يضع تقاليده .. وهو يسمح لنفسه بما لا يسمح به لغيره .. وذلك كله من سمات التخلف العقلي .. وليس هذا من الإسلام في شيء .. لم نسمع أن الإسلام أمر برجم المرأة الزانية والاكتفاء بشدّ أذنيّ الرجل الزاني والطبطبة على خدّه ، إنما وضع لهما عقوبة واحدة .. جعل التوبة محواً لكل الجرائم .. وجعل الشرك وحده هو الجريمة الوحيدة التي لا يغفرها الله ..

كم ابتعدنا عن الإسلام .. وكم نتعلق بأستاره ونهدر روحه ..

نهضت حانقاً أبحث عن أيدي المقشات الخشبية ..

رأي العامّة

يشتهر المصريون بالحكمة ، وسداد الرأي ، والقدرة على إصدار صوت بالفم يقال له التصعيب .. وهو صوت يعني قول القائل «يا ميلة بختنا» . وللمصريين أمثال عامية كثيرة يتصعبون بعدها .. لكل شيء في الدنيا عندهم مثل ، ولكل موقف في الوجود مثل ، وأنا أفكر في تأليف كتاب اسمه «خيبة الآمال الكلية في معاني الأمثال العامية» .. وسر خيبة الآمال أن معظم الأمثال تصدر عن إحساس حسي يلتصق بالأرض .. وتؤيد عديداً من مطالب البطن أو الجسد بغير أن تعبأ بالروح أو الفكر .. وهي أمثال واقعية من النوع الواقعي الشديد الهبوط .. ولا يكاد ينجو شيء من الأمثال العامية .. حتى شهر رمضان له مثل عامي هو الآخر ..

يقول المصريون عن شهر رمضان في أمثالهم العامية ، إن الشهر ثلاثون يوماً ، عشرة للمرق ، وعشرة للخلق ، وعشرة للحلق .

ونقول في تفصيل ذلك وعلى الله الاتكال : إن الثلث الأول من الشهر يخصص للمرق .. والمرق هو السائل الجميل الذي تنتجه الفراخ أو الديكة أو اللحم أو البط أو الإوز بعد ذبحه وتنظيفه وسلقه على النار . والمرق أنواع . هناك مرق اللحم . وهذا المرق تعلق المشايخ .

وهناك مرق البط والاوز ، وهذا من تخصص العمد ، وهناك مرق الديوك الرومي ، وهذا من مستلزمات الأسر التي يمتلك كل فرد فيها خمسين فداناً فأكثر ، وهناك مرق الفراخ وهو النوع المعروف للكافة ، ولقد تطوّر مرق الفراخ على مر التاريخ القديم والوسيط والحديث تطوراً هاماً . في عصر الفراعنة كانت الفرخة المصرية لا تتزوج إلا من ديوك مصرية حتى لا يختلط دمها النبيل الأزرق بدم أجنبي ، ولذلك كان مرقها من نوع دسم يحمل نكهة مصرية تاريخية خاصة . وفي العصر المسيحي كان الرجال يربون الفراخ ويشوونها على النار ولا يسلقونها لأنهم نسّاك البرية ، وانعدم المرق في هذا العصر أو كاد ، وفي عصر الفتح العربي استمر اضطهاد المرق ، فقد كان المسلمون الفاتحون أبناء حضارة زاهدة في الطعام متفتحة لما هو أهم ، غير أن أبناء الفاتحين العرب حين ركنوا إلى الدعة وابتعدوا عن عظائم الأمور تنبهوا إلى الفراخ ومرقتها ، ومن هنا عاد مجد المرق . يصف المقريزي أسواق القاهرة ويحكي عن الفراخ المحشوة بالفستق واللوز وعين الجمل الذي كان يأكله العامة من الناس ، أين ذهب مرق هذه الفراخ . قطعاً كان الناس يشربونه مثلما يشربون اليوم الكوكا كولا والبيبسي كولا والمصر كولا .

وحتى العصر الوسيط لم تكن الفراخ المصرية تتزوج من ديوك أجنبية . ولم يعرف في العصر الحديث في حملة بونابرت انه أحضر معه ديوكاً فرنسية ، غير أن القرن العشرين قد تميز بتطور هام طرأ على الفراخ والمرق نتيجة انتشار المواصلات وسرعتها وسهولتها واتصال المعمورة بعضها ببعض . بدأت الفراخ المصرية تتعرض لحملات من الغزو والمنافسة . غزت أمريكا السوق بالفراخ الأمريكية ، وهي فراخ

عديمة المرق عديمة الدسم ولا تصلح إلا للشواء ولا يأكلها غير النساك والمشمومين ، وقد كان غياب المرق من موائد المصريين أمراً مؤسفاً . ثم شاءت رحمة الله أن يدب الخلاف بيننا وبين أمريكا فينقطع استيراد الفراخ الأمريكية ، وبذلك عاد مجد المرق وعادت الفرخة المصرية تتربع على عرشها القديم .

ثلث رمضان كما يقول العامة للمرق .

أما ثلثه الثاني في تصورهم فهو للخلق .. والخلق كلمة عامية تعني الملابس . ملابس العيد .

وهكذا ينشغل المسلمون الأفاضل في ثلث رمضان الأول بالمرق ، وفي الثلث الثاني ينشغلون بالخلجات ، كما يقول الصعايدة ، وبالهدوم كما يقول البحاروة ، أو بالملابس كما يقولون في البندر ، وتحتل ملابس العيد اهتمام الناس في ثلث رمضان الثاني ، وفي هذا الثلث يهجم الأولاد على أبيهم متصايحين مطالبين بالملابس الجديدة ، وكلما زاد عدد الأولاد والبنات زاد تفكير الوالد في هم الملابس وطريقة إحضارها . والمصيبة أن الأولاد يكبرون وتتسع معلوماتهم وتزيد أطماعهم نتيجة الإذاعة والتليفزيون ، ولهذا يفكرون ويفكرون في الملابس المستوردة ، ويقولون لماذا واشمعنى وليه يعني ، إلى آخر هذه الاحتجاجات التي تجعل المرء يفكر في الإفطار وضرب كل واحد منهم علقة ، وتطبيق نظام حظر التجول والخروج للفسحة ، غير أن زوجتي تقول لي :

ـ حسك في الدنيا يا بيه ، وكل سنة وانت طيب . وان ماكنتش

تجيب لهم مين اللي يجيب لهم ، واهي أيام مفترجة وربنا يديك الصحة ويطول في عمرك .

وهكذا أتراجع عما اعتزمته ..

....

ثم يجيء ثلث رمضان الأخير .. وقد قال العامة أن ثلثه الأخير للحلق.

والحلق في لغة العرب هو الشيء المدور . هو الشيء المدور المزركش المنقوش الذي يوضع السكر على وجهه .. هو الكحك ، وكحك العيد يدين بوجوده التاريخي للفاطميين . كانوا يتفننون فيه ، ويصنعونه من الدقيق المعجون بالماء المضاف إليه ماء الورد المضاف إليه السمن البلدي ، وفي أيام الفاطميين كان شوال الدقيق بمليم ، وكانت صفيحة السمن بثلاثة مليم ، وكان الخروف بتعريفه ، وكان الجنيه المصري الجبس يساوي الجنيه الإنجليزي الجبس ، وليس لهذا الأخير سوق سوداء ولا بيضاء ، ولهذا توسع الفاطميون ومن بعدهم المماليك في موضوع الكحك ، وأغفلوا أن الحياة تتقدم ، وأن الزمن يتطور ، وأن وقتاً سيجيء على الناس ويصبح الكحك فيه مأساة لا تقل عن مأساة البطل اليوناني تانتالوس الذي حبسه الآلهة عطشان جوار نبع ماء يسيل أمامه ولا يستطيع الدنوّ منه . ويكفيه عذاباً أن يدلدل لسانه أمام الماء ولا يشرب .

نحن بعد أن عبرنا ثلث المياه الأولى من شهر رمضان ، وهي مياه تمتلئ بالمرق والفراخ واللحم والفتة .. وبعد أن اجتزنا ثلث المياه الثانية من شهر رمضان ، وخضنا في أمواج الملابس وصخور الأحذية ودوامات البلوفرات .. نحن الآن نعبر ثلثه الأخير الذي صنعت مياهه

من الدقيق والسمن والسكر والعجوة .. أي بلاء أن تكون نظرتنا إلى شهر رمضان هكذا ، وهو شهر لا علاقة له بالفجعانين أو المفاجيع في قول آخر ..

قالت زوجتي :

ـ الكحك يا بيك .. عادة لا تنقطع وربنا يطول في عمرك ..

بعد ذلك رحت أفكر في الكحك ، مثل أي رجل تقدمي أفكر في الأشياء تفكيراً علمياً ، وهكذا قررت تأليف بحث علمي عن كحك العيد يلخصه لجمهور الدباغين ، عسى الله أن ينفع به المسلمين .. آمين ..

الكحك صعب وطويل سلمه   إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به إلى الحضيض قدمه   يريد أن يأكله فيلكمه

بيتان كانا من الشعر فصارا من الكحك . والكحك ألوان ، وهو فن ، والفن صورة . أول كحكة في التاريخ سكتت عنها المراجع ، لا أحد يعرف من الذي صنعها ومن الذي أكلها . سقط هذا كله في ظلمة الزمن . غير أننا نملك عقلاً ونستطيع أن نفكر . بالقطع لم يكن سيدنا آدم عليه السلام يفكر في الكحك بعد الكحكة التي أخذها في الامتحان نتيجة لأكله من الشجرة المحرمة .

في عصر الصيد كان الإنسان يخرج إلى الصيد ، إما أن يقتل الثور أو يقتله الثور ، كان أحدهما يعود وهو يسحب عشاءه وراءه . يتفق المؤرخون والعلماء والأثريون على انعدام الكحك في هذا العصر ، عثر المنقبون على صور الثور في كهوف التاميرا ، ولم يعثروا على صورة واحدة للكحك ، لم يكن هنالك كحك إذن ، وهذا مفهوم على المستوى العلمي ، فإن الكحك طعام مركب ، مثل الفن المركب ، مثل المسرح ،

ومن الطبيعي ألا يظهر في العصور التاريخية القديمة البدائية .

ثم جاء عصر الزراعة ، واستأنس الإنسان الثور . وتمَّ بينهما اتفاق ودي ، وبدلاً من أن يأكل أحدهما الآخر ، اتفقا على الأكل معاً . ثم استقرَّ الإنسان في عصر الزراعة ، وبدأ تقسيم العمل والتخصص ، بدأ تنظيم الزواج ، وتقدمت صناعة الآنية ، واستطاع الإنسان بذكائه أن يخترع آنية مخرومة من وسطها وغويطة من جوانبها فإذا وضع فيها العجين صارت كحكة . وكانت أول كحكة في حجم صينية الكنافة الكبيرة اليوم . وقد أكل هذه الكحكة أمير له عبيد كثيرون ... كنا في العصر العبودي .. ترك صانع الكحكة كتاباً في طريقه صنعها ، ثم أحرقه أحد الغزاة ذات يوم ، فذهب اسم الأمير والصانع ، وذهب سر صناعة الكحك مثلما ذهب سر التحنيط الذي اكتشفه قدماء المصريين . وضاع سر الكحكة على البشرية عدة آلاف من الأعوام .. ثم عاد في الظهور في عصر قدماء المصريين .

كان قدماء المصريين يصنعون الكحك في ثلاث مناسبات : في ذكرى عودة أوزيريس الذبيح ، وفي يوم الزينة وهو يوم شم النسيم الذي جمع فيه فرعون موسى والسحرة فلما سجد السحرة انكبس فرعون كبسة هائلة وأمر بتحريم صناعة الكحك في هذا اليوم لأنه يوم حزن عام . أما المناسبة الثالثة فهي مناسبة طرد أحمس للهكسوس . فبعد طردهم مباشرة انكب المصريون على صناعة الكحك بهمة لا تعرف الوهن ، وجهد لا يصيبه الكلال ، حتى انهم ظلوا اسبوعاً يأكلون فيه الكحك ويرقصون في الشوارع . وكان الكحك في حجم نصف صينية الكنافة ، وكان الناس يقصرون ويقتربون من الأرض ، ويزدادون

لؤماً وذكاء ومقدرة . كما كانت أفواههم تصغر .

....

لم يزدهر الكحك في العصر المسيحي في مصر ، ولا في العصر الإسلامي في مبدئه ، غير أن دخول الفاطميين مصر سجل نشاطاً ملحوظاً في صناعة الكحك وتجارته .

وبالنسبة للعالم الخارجي اثر اكتشاف رأس الرجاء الصالح وتحول طرق التجارة على الكحك وصناعته . تأخر وصول الدقيق الإفرنجي واعتمدت البلاد على الدقيق الوطني الأسمر ، وظهر الكحك بوجهه الأسمر كئيباً ، فدعا السلطان أحد كبار أطبائه ، وأحد كبار الفلكيين وأحد كبار رجال الجيش ، ونقيب العجين وشيخ حارة الدقيق وأعظم الحلوانية في الكنافة ، واستشارهم في موضوع سواد وجه الكحك ، وانعقدت لجنة وبـدأت تبحث حتى اهتدت أخيراً إلى دق السكر ورشِّه على وجه الكحك ليصبح وجهه أبيض .. ومن هنا جاءت عادة وضع السكر على وجه الكحك ، وذكر التاريخ للفاطميين في مصر فضل تأصيل عادة صناعة الكحك والتفنن فيه ، كان الفاطميون يريدون تحويل المصريين إلى شيعة ، والمصريون قوم على جانب عظيم من اللطف والتسامح ، انهم يتحولون كما يحب حاكمهم ، ولكنهم يتحولون كدا وكدا ، وشجعت دولة الفاطميين صناعة الكحك ، وسميت إحدى الحارات في مصر بحارة الكحكيين نسبة إلى اقتصارها على صناعة الكحك . واشتهر كحك العيد كما اشتهر دقيق العيد إلى الحد الذي كان هناك رجل اسمه دقيق العيد ، ثم أنجب هذا الرجل ابناً ونشأ هذا الابن عالماً في الشرع وألف كتاباً فقهياً قيّماً ، وذلك هو

قاضي القضاة ابن دقيق العيد .

وحين جاء صلاح الدين الأيوبي إلى مصر وقرر تحويل أهلها إلى السنة ، لم يجد صعوبة في ذلك ، انهم يحبون الشيعة ويحبون السنيين ويحبون النبي عليه الصلاة والسلام ويحبون علياً كرم الله وجهه ، وهم مسالمون في حبهم وليسوا على استعداد من أجل تفضيل زيد على عمرو أو عمرو على زيد .

وكان المفروض هنا أن يسقط كحك العيد كتقليد فاطمي بعد ذهاب عصر الفاطميين من مصر ، غير أن شيئاً ما .. سراً ما في الكحك ، جعله يقاوم الاختفاء ويمتد في الزمان ويعيش ويستكمل نشاطه .

وربما قال المصريون لصلاح الدين .. نتحول من الشيعة يا سيدي إلى السنة .. ولكن نحتفظ بكحك العيد .. وربما تصور صلاح الدين كحك العيد هذا اسم حركي لمنظمة سرية شيعية ، ثم اطمأن حين أكله وقرر العفو عنه وتركه للمصريين .

وبدأ حجم الكحك يصغر مع الانقلات الصناعي في أوروبا وظهور الآلات وتطور المواصلات وتقدم العلوم وبلوغ عصر الاكتشاف ذروته وتحول الإنسان إلى اكتشاف الطبيعة حوله .

وهكذا تطور الكحك ، كان يصنع من السمن البلدي الأخضر الفاخر ، فصار يصنع من الزيوت النباتية التي تعبأ في العلب الصفيح ، كان يرش عليه سكر ناعم فصار يرش عليه سكر خشن ، وكانت الكحكة زمان تتعرض لامتحانات قبل أن تخرج من المصنع مثل أي سيارة ألمانية في عصرنا ، كان الكحكي يجيء .. والكحكي هو الذي يذوق الكحك ، ويمسك الكحكة في يده ، ويقربها من فمه ، فإذا لم

تذب ذوباناً قبل أن تصل إلى فمه كانت رديئة .. أما اليوم فالكحكة جامدة كقطعة الحجر ، ويمكن اعتبارها سلاحاً كما حدث في المشاجرة الأخيرة بين عائلتين على الكحك ، إذ انبدل صاج مكان صاج ، فقالت المدعية الأولى صاحبة الصاج الناعم ليس هذا كحكي . هذا كحك يبطح لو ضربتك به ، ثم أمسكت كحكة بيدها وضربت بها وجه المجني عليها فسال دمها وكادت عينها تروح ، وعملت لها ثلاث غرز في جبهتها واستغرق شفاء الجرح أكثر من ٢١ يوماً ، واحتار وكيل النيابة في تحديد نوع السلاح المستخدم في الضرب فسأل المتهمة :

ـ ضربتيها بكحكة يا ولية ؟

قالت : غاظتني يا بيك .. قالت : ده كحكي .. وكحكي يدوب في الفم ، بطحتها لتعرف ان الصاج انبدل .

....

إن للكحك دنياه ، هو علم كبير تخصص فيه المصريون وتوارثوا تخصصاته ، ويحتفظون بأسراره التي تجهلها تماماً أكاديمية الكحك في موسكو . ومركز أبحاث الكحك في أمريكا .

هناك أسر تشتهر بكحكها الناعم ، وهناك تقاليد لنقرشته.. وهناك زحمة الصواني عند الفران ، ووقوف الشغالات بالساعات في انتظاره ، وهنا ينزل كيوبيد من سمائه ويرشق سهمه في قلبين عادة ، هما قلب صبي المكوجي وقلب شغالة لطيفة ..

وعادة يقول صبي المكوجي :

ـ أحلى م اللي شايله يا طعم أنت يا كحك العيد ..

يرمي كلمته على كل واحدة تمر بالصاجات ، وأحياناً تدق

صاجات الفرح في القلب وقد تغمز السنارة وقد لا تغمز ، فإذا حصل ، صار الوقوف الطويل عند الفران مثل وقوف جولييت في حدائق آل كابيوليت .. شيئاً يشبه الحلم الملون .

في الباب التاسع والسبعين من كتابي عن الكحك الذي أنوي تأليفه والتقدم به لنيل جائزة الدولة ، وهو باب عنوانه «النظر البعيد .. في كحك العيد» في هذا الباب أنوي أن نناقش بكل موضوعية أكاديمية ، موضوع إحراق الفرن لكحك العيد ، وعلاقة هذا بحب الشغالة الجديد .

«وبذلك تنتهي الخيوط الرئيسية في البحث» .

....

....

قالت زوجتي : الست والدتك بعتت لنا كحك العيد يا بيك .

قلت : هاتي .

وهي تناولني الكحكة انكسرت الكحكة نصفين قبل أن تصل لفمي.

هللت زوجتي وكبّرت وقالت : ما شاء الله يا بيك ، ما شاء الله .

قلت لزوجتي : صلي عا النبي ولا تحسديها ، أمي أشهر من يصنع الكحك في الكرة الأرضية .

إضراب المعدة

(الجمعة الحزينة)

أسير في شوارع المدينة
الجمعة الحزينة ..
آخر جمعة في شهر رمضان .

مر على المسلمين ١٣٨٩ شهراً من شهور الصيام .. نستثني منها مائتي شهر خلال القرنين الأول والثاني بعد الإسلام ، وبعدها نستطيع أن نقول قد مر على المسلمين نحو ١٢٠٠ شهر من شهور القطايف والكنافة والثريد . في البدء كانت الكلمة . كلمة اقرأ . أي ثقل نفسي أحس به المسلمون القدامى إزاء الكلمة . انتهى جبريل من قراءتها على النبي ، وانتهى النبي من قراءتها على خديجة ، وانتهت خديجة من قراءتها على بحيرا الراهب ، وقال الراهب : هذا هو الناموس الذي أنزل على موسى .

فوجئ موسى بالنار وهو يقترب منها . كانت تشتعل في منطقة مشجرة وسط ليل حالك بارد . وكان قلب النار يضيء بضوء لا عهد للناس به في الأرض . ويرتج الوادي المقدس بالنداء المفاجئ .

« فلما أتاها نودي يا موسى . إني أنا ربّك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » .

أي روع يحسه النبي والله يختاره . إن قصص الحب العظيم في نهاية الأمر اختيار . والشعلة المقدسة التي اتقدت عبر القرون لم تزل متقدة تقطع طريقها نحو غار حراء . نفس الشعلة . نفس المصدر . نفس الخالق ، وإن تغيرت وجوه الأنبياء والرسل .

قالت اليهود لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون .

وقال المفسرون : مردوا على الذل حتى صار طبعاً في النفس وجبلة ، أذلهم فرعون والذل يلوي فطرة الناس ويفسد سلوكهم فما عادوا يصلحون لشيء .

وقال العرب لمحمد : والله لا نقول لك ما قالته اليهود لموسى ، وإنما نقول لك : لو خضت بنا البحر لخضناه معك .

أخوض في شوارع المدينة ..

الجمعة الحزينة ..

ثمة ظاهرة تمضي إلى الأمام في ثبات وسداد ، الحوانيت التي تبيع بضائع الفرنجة تزداد ، ثمة محل لبلوفرات الكشمير التي تدفئ العباد ، وهذا محل للكلونيا وهي في الصباح خير زاد ، وهناك فيما يقولون منع وحظر للاستيراد . إلا لمن آمن واتقى من محال القطاع العام في البلاد . سألت نفسي وأنا أنظر لقطعة قماش تعيش كالأوتاد .

ـ بكم يا ترى ؟

ثم أجلت التفكير فيها وقلت : بعد العيد ، حين ننهي ما علينا للدائنين من سداد .

أعرف انني صائم ، أعرف ان الصوم طريق مختصر إلى التقوى ..

أعرف أن التقوى هي أقصر الطرق إلى الجنة . غير أنني فيما يبدو مولع بأطول الطرق .

لا علاقة لي بهذا الذي يسمونه التقوى . لا أعرف سبباً لحزني الكثيف الغامر ، لماذا يبدأ مذاق الذنوب حلواً في البداية ، ثم ينتهي الحفل وتبدأ المرارة تشق طريقها إلى القلب ، ثم تزيد جرعة الندم ويتحول الحلو إلى نبات الصبر المرير الذي يسقونه للمريض ولا شفاء . كم أكبر . لشد ما أحقد على دوران الأرض تـدور الأرض حـول نفسها وحول الشمس . وتدور الشمس حول نفسها وحول النجوم . وتدور النجوم حول نفسها وحول المجرة . وتدور المجرات حول نفسها وحول أمر واحد من أوامر الله . أمر واحد : ائتيا طوعاً أو كرهاً .. قالتا أتينا طائعين .

أنا أدور حول آلاف الاهتمامات عكس دوران الأرض والشمس والنجوم والمجرات ، يدورون جميعاً في اتجاه أمر الخالق . وأدور في اتجاه معاكس . لا إله إلا الله . لم يعد قولها يكفي لهز الأرض وإيقاع الاحترام في نفوس الكائنات . تحولت سيوف المسلمين إلى سيوف خشبية يمسكها خطباؤهم على المنابر ، وتحول القرآن إلى أحجبة تعلق للبركة .

أسير . أريد أن أتصل بهبة الله القادمة من حقول الشاي المعطرة ، وأرض الدخان الخصبة . أريد كوباً من الشاي وسيجارة . لكنني صائم ولا أصلي .

كيف أفطر وأنا مسلم . لكنك مسلم ولم يهزك إحراق المسجد الأقصى . وقديماً قالت امرأة مسلمة : وامعتصماه . فتحركت المروءة

وسيرت جيشاً لنجدة الصيحة .

أسير . اسمع رجلاً يقول لرجل آخر وهو يقدم إليه سيجارة :

ـ فيه رمضان .

لعلهما صديقان . يسأله هل هناك رمضان . هناك يا سيدي . غير أنه حوصر في نفوس الآلاف بعد أن كان راية تحرك نفوس الملايين . انحسر يا سيدي مثل موجة عظيمة وتساءل المسلمون بالدهشة والذهول : أين ذهب ؟. ولم ينظر أحدهم في نفسه ليرى أين ذهب الإسلام . أضعناه من أنفسنا وتساءلنا أين ذهب . هي قدرة على النفاق بلا حد ، أو هو غباء أصبناه ولا رد .

وصل تلغراف ثان من المعدة إلى المخ . هذا هو التلغراف الثاني الذي يصل في النصف دقيقة الأخيرة . شعيرات الدم في المعدة ترسل آلاف التلغرافات إلى المخ عن طريق الأعصاب الدقيقة المنتشرة في جدار المعدة . تسأل : أين الشاي والسجائر . وانتظرنا الشاي في الصباح وانتظرنا السجائر في الضحى وانتظرنا الفول في الإفطار وانتظرنا الأرز واللحم في الغداء ولم يحضر أحد .

قال التلغراف الأول : أفيدونا أي كارثة وقعت ؟

قال التلغراف الثاني : العصارة المعوية معطلة . الحواس مضربة . العصارات الضارة تتحرش على الحدود . هناك شيء خطأ .

قال التلغراف الثالث : كل شيء في حالة ارتباك تام . جيوش المعدة في حالة توقف كامل . ماذا حدث ؟ .

وكل مرة يعود التلغراف من العقل بجواب واحد : سيدكم صائم . بدأت التلغرافات بعد ذلك تبلغ : الدم يسأل عن النيكوتين .

تخلفت عشرون سيجارة عن الحضور .. أفيدونا ..

ولا رد غير أنه صائم . سيدكم صائم . سيدكم يعذب نفسه . من العيب أن يفطر وهو مسلم . وهو مسلم لأنه مسلم . وقد أصابه من الصوم الجوع والعطش . وسيدكم رمز لآلاف المسلمين الذين صار الإسلام في حياتهم قشرة على السطح ولم يعد هوى يملأ القلوب ويوجه الحواس .

الصائم اليتيم

هوى الإسلام المفقود يذكر المرء بهواه الخاص الذي ضاع ، لو كان المرء مسلماً ما ضاع هواه . يضيع الإنسان نفسه ويضيع هواه في نفس اللحظة .

أسير في شوارع المدينة ، ثمة فتاة تسير هناك ، شيء ما في شعر الفتاة ومشيتها يذكرني بها ، امتقع وجهي وأحسست بذلك ، نفض قلبي فجأة عنه ريش سنوات . كأنها كانت ليلة ممطرة واحدة يا نور ، كانت ليلة ممطرة واحدة يا حبي .

كانت تقول لي : لن أكون لغيرك مهما حدث . ليس المهم هو المكان أو الطعام .. المهم هو الشخص . هو الرفقة . أنت المهم .

تذكرت وجهها الجميل ذا الملامح الطفلة .. ولم أعرف أن هذا الوجه يمكن أن يغيب يوماً عني حتى ولو بالموت .. لماذا هجرتني وكذبت عليَّ . لماذا يكذب الإنسان ، كنت مسلمة ورغم ذلك كنت تكذبين ، لماذا يكذب المسلمون .

قالت لي يوماً : إنني معلقة في الكون بطرف إصبعي ، أنت صلتي الوحيدة بالعالم ، ولو قدر لك يوماً أن تفكر في هجري وتذهب ، فسوف أسقط من شاهق ... أين أذهب بعدك .. أين أذهب ..

ها أنت قد وجدت أين تذهبين بعدي ..

أحس بمثل أحزان يونس ، لم يكن يعرف أين يذهب ، وفوجئ بنفسه في جوف الحوت ، والحوت يجري به في جوف البحر ، والبحر يجري به في جوف الليل ، ثلاث ظلمات بعضها فوق بعض .. تصور يونس أنه مات .

حرك حواسه فوجد نفسه يتحرك .. هو حي إذن . أصاخ سمعه . قاع البحر بدنياه يسبح . كان منكفئاً على وجهه في بطن الحوت فسمع تسبيح الكائنات لله .. كان ساجداً مثلي بجسده رغم أنفه . سجد بقلبه وتحرك لسانه : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .

كان يونس صائماً في جوف الحوت ، وكان حبي لها صوماً مستمراً وأحزاناً عميقة تلد ملايين الأفراح العميقة .

مكث يونس في بطن الحوت زمناً لا يأكل . طعامه التفكر والتسبيح . بعدك يا حبي تعلمت الصوم . بعد رحيلك تعلمت اللامبالاة . وحين ذهبت تماماً تعلمت اليتم . صرت الصائم اليتيم والجمعة اليتيمة والإسلام المهجور .

الجمعة اليتيمة والصائم اليتيم يسيران . تتقدمني بخطوات . كم تشبهها هذه الفتاة .. حتى في مشيتها . انها تقفز مثل فراشة صفراء مذهبة الحواف . ما الذي بقي وما الذي ذهب . مددت يدي في جيبي وأخرجت علبة السجائر وأشعلت سيجارة .

أترنح تحت دوار هائل هو دوار الحب الأخير .

نسيت أن الدنيا رمضان وأنني صائم . استندت إلى عمود من أعمدة النور .

الدنيا نهار والنور مضاء ، والقلب وحده في ظلام عظيم .

ظلام ساكن هادئ ويتيم هو الآخر .

معها لم يكن هناك زمن عام مثل أزمنة الناس التي تنقسم للشهور والأيام والساعات والدقائق .. كان لنا زمننا الخاص .. زمننا الخاص الذي نلتقي فيه حين نشاء ونفترق فيه حين نود . ولو بقي كل منا في مكانه لا يبرحه .

كان يكفي أن أنظر إليها ليرتعش في داخلي شيء ، وينهار الحاضر ، ويموت الموت ، وتبعث أصوات داود وهو يقرأ مزاميره ، فتحيط به الطير وتأنس إليه الوحوش وتسبح معه الجبال ... وأحدق في عينيها الواسعتين الحزينتين ، وجبهتها النبيلة الفضية ، وشعرها الذي كان مثار قلق دائم لها ، فهو يوماً أصفر ويوماً أسود ويوماً يشيع فيه الشيب الذي تصطنعه .

٢٠ سبتمبر ..

نهاية الخريف وبداية الشتاء ..

الشمس تفقد حرارتها وتشحب ، عما قريب تأفل الشمس هناك وتشرق داخله . في السماء سحب تنذر بجو بارد ومخاوف مجهولة .. وهي ترتدي ملابس نصفها صيف ونصفها ملابس شتاء .. الجونلة صيفية والبلوزة شتوية والصندل الجميل يكشف عن أصابع قدميها .. بعد أزمنة سوف تنعقد الصداقة بينه وبين كل مسام أصابع أيديها ، ويصير صديقاً لكل أظافرها ..

كانت صائمة في البداية ، وأخفت بالكريم هالات سوداء حول عينيها .. غير أنه لم يعشق شيئاً مثلما عشق وجهها حين تغسله من الأصباغ .

كان يحب وجهها هكذا .. كما خلقه الله .. وكانت تتصور أنها ليست جميلة .. وكان يراها حاجته الأولى والأخيرة في الوجود . اجتمعا في البداية حول قصيدة من الشعر استمع إليها ولم يكن يفهم كل كلمة على حدة ، وإنما أحس بمذاق ما تقوله كله ، وصعد حزن هادئ ورفيق إلى القلب ، أحزنه أن مات هدهد سليمان ، وأحزنه أن ماتت النملة التي حدثته ، وأحزنه أن مات سليمان نفسه ، لماذا لم يفهم ساعتها أن كل شيء على الأرض يموت ، الأنبياء والأشياء الجميلة والحب ، لماذا تعلق بشيء يمكن أن يموت . لم يسأل نفسه هذه الأسئلة كلها ، كان يمتلئ بحبها ، وعرف بسببها جرأة المحبين ، وكان يتحدث معها كثيراً وينزلق إلى العبادة ، وهو يعلم أنه غير مؤاخذ بأقواله .

قال أحد الطيور الذكور لإحدى الطيور الإناث في قبة سليمان : إنني أحبك فتعالي إليَّ ..

ورفضت أنثى الطير ..

قال الذكر : لم تمتنعين عليَّ ، وإن شئت قلبت القبة على سليمان .

وسمعه سيدنا سليمان فاستدعاه إليه وسأله : ما حملك على ما قلت ؟ هل جننت ؟

قال الطائر : يا نبي الله .. إن العشاق لا يؤاخذون بأقوالهم .

وكان سليمان حكيماً فقال له : صدقت .

لا يؤاخذ العشاق بأقوالهم ، كانا يتحدثان معاً ساعات طويلاً ،

ثم ينصرف إلى بيته فلا يعلم فيم كانا يتحدثان ، ولا يذكر إلا مذاق الراحة التي تملأ صدره .

كانت تشبه نسيم حرية حقيقية .

أحياناً كانت تقول له :

ـ انهم لا يطعمونني .. تصور .. لقد تشاجرت ورفضت أن آكل .

وكان يطعمها من عينيه ويرى بعينيها .

وربما سألته في لحظة يأس :

ـ لماذا أتعذب . لقد ظلمني الله .

وكان يصرخ عليها من البعد السحيق الذي تقف فيه بكلمتها .

ـ نور .. لماذا تقولين ذلك .. الناس هم الذين يعذبون الناس .. نحن نظلم بعضنا وليس الله مسؤولاً عن ذلك .

كانت نور تتساءل دائماً عن الألم الذي يملأ العالم ، وتأكل أظافرها وتتحدث عن المرض والجهل والتعاسة والظلم والدماء البريئة التي تسيل في الأرض . وكانت تشير بإصبعها نحو السماء كأنها تتهم السماء ، وكان يقبل إصبعها الصغيرة ويخفضها في اتجاه الأرض ، حيث يقف المسؤول عن هذه التعاسة . كان يشير إلى الإنسان ويصحح اتجاه إصبعها إليه .

كان يقول لها فيما يقوله :

ـ « نور » هناك علاقة وثيقة بين أحلام هتلر الظالمة وبين شلل الأطفال ، بسبب نقص الكالسيوم الذي سببه غياب اللبن الذي كان يشربه القتلة من جنوده . إن الكون كله يقوم على الأسباب والمسببات والعلاقات والحسابات المتشابكة المعقدة ، والظلم الإنساني وحده هو المسؤول عن التعاسة الإنسانية ، ونحن ننتمي لجنس قتل فيه قابيل

أخاه هابيل . أباده تماماً من سطح الكرة الأرضية . هل كان قابيل جنساً وكان هابيل جنساً آخر ؟ هل كان أحدهما فرداً والثاني فرداً ؟ هل قتل قابيل هابيل بسبب امرأة ؟ أم لمجرد أن المقتول أفضل من القاتل .. ولهذا قتله القاتل .. لا أعرف .. كل ما أعرفه أننا حين نسكت على رجل يعذب رجلاً آخر .. نزيد دون أن ندري من كمية الشقاء في العالم .. يجب أن تقاومي تعاستك الخاصة .

وتسأله : من الذي يصنع قيودنا على الأرض ؟

ويجيبها : صمتنا يا نور .. مجرد الصمت ..

وتسأله : لم أعد أريد أن أقاوم .. تعبت وسئمت وأفكر في الخروج .

ويقول لها : نور .. لمن تتركيني يا نور .. أين أذهب بعدك ؟.

إن قابيل لم يزل يتحرك نحو شقيقه الطيب ، يجب أن يتدخل أحدنا ليمنع هذه الجريمة ، تريدين الهرب يا نور .

وتستمع إليه نور ثم تبتسم ، ويدرك من ابتسامتها أنها قد تعبت من المناقشة .

وتسأله برفق : أنت تعتقد إذن أنني لست مظلومة ..

ويضمها لصدره وهو يهمس : مظلومة .. ولديك كل هذه المواهب والحسن الظالم .. أي جرأة يا نور .. أي جرأة ..

سألها يوماً وهو يتصنع الجد : هل أنت مصرية . إن وجهك لا يوحي بمصريتك .

حدثته ثائرة أنها مصرية أكثر منه آلاف المرات ، كل ما في الأمر أن إحدى جداتها جاءت من الشمال ، جاءت وعقلها أرض تهب عليها الرياح الأربع ، ربما بيعت في مصر ، ربما أصبحت رقيقاً ، غير أنها

كانت حرة .. كانت هي الحرية ذاتها .

ويقول لها ضاحكاً : أنت من الأجلاب الغرباء الذين وفدوا على مصر ، وأنا من قدماء المصريين ، أنظري أي عذاب تحملينه لسكان البلاد الأصلية .

كانت تحب مصر أكثر منه وتسخر من اعتزازه بالأرض إلى الحد الذي لا يفرق فيه بين أرضه ونفسه .

وكبر حبهما معاً .

يوماً بعد يوم .. ساعة بعد ساعة .. صار إذا ناداه أحد ردت هي عليه ، وإن سأل عنها أحد رد هو بدلاً منها .

ينادي المنـادي باسمها فأجيبه وأدعى فليلى عن ندائي تجيب

وما ذاك إلا أننا روح واحـــد تداولنا جسمان وهـو عجيب

كشخص له اسمان والذات واحد بأيٍّ تنادي الذات منه تصيب

والتقيا يوماً في البكاء . كان يوماً من أيام الجمعة اليتيمة . رقدا في فراش واحد . لم يلمسها رغم أنه زوجها . إنما توضأ معها . وأحضرا القرآن ، وأقسما عليه ألا يخون أحدهما الله . وأن يغفر أحدهما للآخر . والتصق رأساهما وبكيا ما شاء الله لهما أن يبكيا . بعدها اختفت تماماً .

لم يعرف أين ذهبت .

وقيل انها ماتت ، وقيل انها سافرت ، وقيل انها لم تكن موجودة قط ، وقيل انها وهم ، وقيل بل حقيقة وسوف تعود .. وأشار الناس إلى مقبرتها في صحراء مصر وقالوا :

ـ أين تبحث عنها وهي هنا . لقد ماتت . ذهبت . غير أنه ضحك ورفض أن يصدق ...

صار الصائم اليتيم بعدها وإن رفض آن يصدق . لم يزل ينتظرها . لم يزل يسأل كلما وصل إلى عمله : ألم تصل رسالة .

ويسألونه : أي رسالة ..

ولا يعرف بماذا يرد .. ولا يعرف ساعتها كيف يتسع قلب في حجم قبضة اليد لأحزان في رحابة الأفق .. .

ويعاود تفكيره في الحوت الذي التقم يونس .. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . كان يونس صائماً في جوف الحوت ، وهو اليوم صائم في جوف الحوت . لو كان يدري فحسب أين هي ، بأي أرض نزلت ، وبأي أرض دقت أعلامها . لو كان يعرف فقط أين يستطيع أن يبعث إليها بحبه . أو بحنين روحه . أو بشوقه . لو كان يعرف أو يدري لهدأ .

يقولون له : ماتت ، ويرفض أن يصدق .

يقولون له : أين هي إن كانت حية ، فلا يعرف كيف يرد .. ويفكر أنها يمكن أن تجوع في غربتها أو تشقى أو تحزن أو تتألم أو تلتوي قدمها وهي تصعد السلم ويصيبها البرد أو يصيبها السعال أو تمرض أو تموت .

هل مرضت قبل أن ترحل . لا يعرف .. لا ..

هذا كذب .. كل ما يحكونه له كذب .. أنتم تكذبون جميعاً .. أنتم جميعاً تكذبون .

....

....

....

ذهبت لشيخي الصوفي أسأله العون ..

قلت له : ذهبت يا سيدي ..

قال : بم تحس ؟.

قلت : أحن إليها يا سيدي ، وأسأل بالشوق عنها ، وأبكيها ، وتشتاق نفسي إليها .

قال الشيخ :

ومن عجب أني أحـن اليهمـو وأسأل شوقاً عنهمو وهمو معي

وتبكيهمو عيني وهم في سوادها وتشتاقهم نفسي وهم بين أضلعي

قلت له : صرت الجمعة اليتيمة والصائم اليتيم يا مولاي .

قال شيخي : أنت لا تستمع إليّ .. ليس هذا من أدب المريد مع شيخه .. ونهض واقفاً ..

فانصرفت ..

الشمس والقمر

يحب العشاق الصغار القمر .. لا يعجبهم منه غير جمال الصورة ..

فإذا نضجوا في العشق هجروا القمر وأحبوا الشمس .. يستهويهم الآن دفء المشاعر وطاقة الحنان .. فإن زاد نضجهم صاموا عن الدنيا وأحبوا خالق الشمس والقمر وحده .. وهؤلاء هم الصوفية . أعترف أنني قطعت المرحلتين الأولى والثانية ، ولم تزل أحلامي تحوم بحنين ساكن حول المرحلة الثالثة ..

في شبابي كنت من عشاق القمر ، وكثيراً ما أبحرت بسفن الخيال على سطحه ، ثم وقع لي حادث صغير مع القمر في شهر من شهور رمضان ، اكتشفت أن حبه لي يصغر ويكبر .. مرة يتحول إلى البدر ومرة يصبح هلالاً ..

....

ظهرت نتائج الامتحان فإذا بالقمر يتحول من البدر إلى الهلال فجأة ..

رسب العاشق ونجح القمر ... في البداية يقول لك القمر ... لماذا رسبت ؟.

وتقول في نفسك : ما هذا . كنت أتصور أنك ستفرحين حين

أرسب بسببك ، إن هذا دليل قاطع على أنني غارق في حبك ..

غير أن البنات يا مولاي العاشق واعيات منذ الطفولة ..

ترى الولد الصغير يلعب بدبابة معطلة تجر جنزيرها وراءها ، وتصور له طفولته أنه قد استولى بالدبابة على الصالة ، وعما قريب سيفتح بها الكرة الأرضية .. أحلام نابليون وجنكيزخان وتيمورلنك والإسكندر الأكبر وهولاكو تجتمع معاً في نفس الولد الصغير .. وعبثاً تحاول إقناعه بأنه يلعب ..

أما البنت فتحتضن عروستها وتدللها وتغني لها أغنية لكي تنام ، وبذلك تتمرن البنت على أهم شيء سوف تفعله في المستقبل .. تتدرب منذ طفولتها على الأمومة ، ولا تضيع وقتها في أحلام مجد مستحيلة ومضحكة مثل الولد .

ويكبر القمر ويدخل الجامعة .. ويحبه نفس الولد الذي كان يلعب بدبابته في الصالة .. وتمضي الأيام ويذهبان للكشف عن النتيجة فإذا العاشق قد رسب ونجح القمر .. ويتصور العاشق أن القمر سيرثى لحاله ، ويشفق عليه ، ويزداد حباً له ، ويقول له لقد فعلت من أجلي أعظم شيء يمكن أن يفعله الرجل من أجل المرأة ..

ـ لقد حطمت مستقبلك من أجلي ..

غير أن هذا لا يحدث لدهشة العاشق .. إنما يغضب القمر لأن العاشق قد رسب .

ـ كان المفروض أن تنجح ..

ـ كنت أحبك .. ضاع وقتي في كتابة خطابات حب إليك ..

ـ لو كنت تحبني حقاً لنجحت .

ـ يا خبر اسود .. لقد فضلتك على النجاح نفسه .. أهذا جزائي .

ويمضي الوقت . ويكتشف العاشق أنه كان مخلصاً ولم يفكر إلا في القمر .. لو كان مجرباً وله خبرة لأدرك أن عليه أن يبتعد عن القمر أولاً بفكره ليجمع الثمن الذي سيشتريه به فيما بعد .. ويدهش العاشق لهذا الانفصال بين الفكر والمادة .. ويلتفت إلى دروسه .. ويتخرج العاشق ويتخرج القمر .. ويقف العاشق تحت شجرة من أشجار التفاح العظيمة وهو ينتظر من القمر أن يفتح ذراعيه له ويرتمي في أحضانه كي يبدأا معاً رحلة اثنين من فقراء المحبين .

ويطول انتظار العاشق تحت شجرة التفاح .. ويفاجأ يوماً بأن القمر قد تزوج رجلاً في الخامسة والثلاثين ، رجلاً يملك سيارة وعنده طين ويلعب الطاولة ويغضب إذا انهزم فيها ... ويقول العاشق في نفسه .. خدعني القمر ..

....

ذهبت إلى شيخي الصوفي وحدثته عن القمر ..

قلت له : خدعني القمر ..

قال : كيف ..؟

قلت : إنه يتغير .. يتحول .. يكبر حبه ويصغر .. لم يكن صائماً من أجلي كما توهمت ، أنظر يا سيدي الصوفي .. لقد أفل القمر أخيراً..

ربت الشيخ على ظهري وقرأ عليّ قوله تعالى : «فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين .. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين» ..

وهداني ربي في سن الكهولة .. فوقعت في حب الشمس .. صارت الشمس أمي وابنتي في نفس الوقت .. كنت أقول لها : أنا وحدي أحبك أنت وحدك ..

وكانت تبتسم ، وشجعتني ابتسامتها فذهبت أطرق بابها يوماً .. سألت الشمس : من الطارق ؟

قلت : أنا ..

فلم تفتح لي ، وخيّل إليّ أن صفاء وجهها يتعكر ، وعدت دهشاً أفتش في أعماقي عن سرٍّ لهذا الرفض فلم أجد ، وسألت شيخي الصوفي عن سر غضبها فتحدث إليّ ولم أفهم عنه .. قال لي : عندما تسألك : من يطرق الباب ، قل لها : أنت تطرقين الباب .. ولم أصدقه ، ومرَّ عام زاد فيه شحوبي ونحولي وعذابي .. ثم عدت إليها وطرقت الباب ..

سألتني الشمس : من الطارق .

قلت لها : أنت .

وانفتح الباب ساعتها ..

حين لم يعد هناك أنا وهي .. حين لم يعد هناك اثنان .. حين صار المحب ظلاً لمحبوبه .. حين فنيَ المحب تماماً وبقي المحبوب بجلاله وحده .. ساعتها انفتح الباب ..

وتعلمت من يومها كيف أحب الشمس بعد أن كنت أتوهم أنني أحب القمر .. والشمس والقمر آيتان من آيات الله .. والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار ، والله أكرم بعباده منهم بأنفسهم ، فهو يخلق للأرض شمسها الأم ، ويخلق لكل واحد منا شمسه الخاصة ، شمسه التي تضيء له وحده ، وتمنحه طاقة الحياة والإبداع والتوهج ..

وهذه الشمس الخاصة هي آية من آيات الله تعالى ورحمة منه وربما كانت شمسنا الخاصة أعظم في الدلالة على عظمة الله من الشمس الأم .. يسيطر علينا هذا الوهم فترة من الزمن ، حتى لنفكر في قتل من يحاول إقناعنا بأننا نتوهم .

....

حدثني شيخي بأن الحب الإنساني وهم ، فابتسمت له بوجهي وأنكرت عليه في قلبي .

....

ونكبر أكثر .. يشتعل الشعر الأبيض في رؤوسنا أكثر ، ويجيء علينا اليوم الذي نكتشف فيه أن شمسنا الخاصة قد خانتنا هي الأخرى وغربت ، ذهبت سافرت ، أفلت ، ضاعت لأي سبب من أسباب الفقد أو الضياع ، ونغرق في بحر من الظلمات فجأة بغيرها . وتنسحب منا الأرض بعد أن ضاعت الشمس . تتحول البحار والمحيطات إلى جليد . وتكبر جبال الثلج حولنا حتى لتسد عنا الرياح والنجوم . وتتقطع الأسباب والعلائق بيننا وبين الدنيا ، ويبدأ حزننا الحقيقي ساعتها ..

....

وتحس في البداية أنك منقبض الصدر قليلاً ..

ثمة إحساس ضعيف بأن ثقلاً ما قد صعد من مكان ما واستقر داخل قلبك ، ثم تهمد روحك وتفقد بصيرتك قوة أبصارها فلا تعود تحب زهرة أو شجرة أو بقرة أو نملة أو سحابة عابرة .. ثم تكتشف أن قلبك يدق .. وتفكر أنه يدق منذ ثمانية وثلاثين عاماً ، وتحضر ورقة وقلماً وتبدأ في الحساب .. قلبك يدق منذ عشرين مليون دقيقة ، كم مرة

يدق فيها القلب في الدقيقة ، من ٨٠ دقة إلى ١٢٠ دقة .. يا للعدد الرهيب ، لقد دق قلبك في المتوسط حتى الآن ٢٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دقة ، أي آلة تدق كل هذا العدد من الدقات ولا تتوقف .. هناك احتمال بأن يتوقف القلب بعد هذا المجهود الرهيب .. وتبدأ بتفكيرك في الموت ، ثم تستولي عليك فكرة الموت ، ثم تتصور أنك ميت يتوهم أنه حي ، ثم تتأكد أنك ميت يحلم ..

لقد ذهبت هي ..

ذهبت الحقيقة الوحيدة في حياتي أو حياتك .. ذهبت قدرتنا على الاختيار .. وبذهابها لم يعد هناك ثقة حتى بأننا أحياء .. لكنك لا تموت ، وتفسح فكرة الموت في نفسك مكاناً لكآبة لا تلبث أن تتسع حتى تملؤك .. وتصبح عصبياً .. وتحس مثلي برغبة في البكاء ولكنك لا تبكي ، وتود أن ترمي بنفسك في النيل لكن مشكلتك أنك تعرف السباحة وربما سبحت وخرجت لشاطئ اليأس الآخر .. ثم تلاحظ دقات قلبك ذات ليلة وأنت راقد على ظهرك . الموضوع جد ، ان قلبك يسرع .. ثم يبطئ .. ثم يدق بشكل لا علاقة له بالسرعة أو البطء .. لقد بدأ قلبك يلخبط .. وهذا إنذار نهائي بأنه قد تعب ..

قلت لنفسي : سأموت حتماً بعد ثوان.. وهرعت إلى الطبيب ثاني يوم بعد أن صار الأمر جَداً لا هزل فيه .

قلت للطبيب : قلبي يؤلمني يا دكتور .

أرقدني على الفراش وكشف على القلب وقال : لا تخف .. اضطراب بسيط في القلب .. بم تحس ؟

قلت : أحس بكآبة هائلة ، نريد مكاناً نبكي فيه وننشج ونمزق

وجوهنا بأظافرنا وتشجعنا دموع الآخرين على البكاء ..

قال الدكتور : أنت مصري أصيل تحب النكد مثل قدماء المصريين.. كانوا يتفننون في النكد رغم حبهم للحياة . هل تعرف أن بكائيات المصريين وعديدهم في الجنازات أعظم من أغانيهم في الفرح وأشعارهم في الحياة .

قلت : يا دكتور أنا أموت وأنت تحدثني عن قدماء المصريين ..

قال : ما هي مشكلتك .. لماذا أنت مكتئب .

قلت : لا أعرف .

ثم سكت خجلاً .. لم أقل له انني مكتئب بسبب رحيل من أحب .. سيضحك الدكتور ويقول : رجل يقترب من الأربعين ولم يزل يحب.. كتب الطبيب روشتة طويلة ملأها بأدوية ضد الاكتئاب وانصرفت .

تناولت الأقراص ولا أمل .. الألم المادي في القلب يزيد ، والكآبة لم ترحل وإنما تنتشر . فشل أطباء الجسد ، ولم يبق غير أطباء الروح ، وأذهب محطماً لشيخي الصوفي لأقول له : خدعتني الشمس وأفلت هي الأخرى يا سيدي .

ابتسم شيخي الصوفي وقرأ عليَّ قوله تعالى : « فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين» .

سكت الشيخ ولفني الصمت .. ظللت صامتاً ثم تذكرت بيتاً من الشعر لابن عربي ، من أكون جوار ابن عربي ، إن ابن عربي يعترف

صراحة بأن شمسه الخاصة حين غربت من أفق السماء أشرقت بأفق قلبه ..

طلعت في العيان شمساً فلمـــا أفلــت : أشرقت بأفق جناني

قال الشيخ : أنت مريض ودواؤك أن تعود إلى الله ..

قلت للشيخ : الشمس داخلي يا سيدي .. والشمس كرة ملتهبة .. وهي نجم في حالة انفجار نووي .. تصور الشمس داخلك .. إن درجة حرارة قلب الشمس ٤٠ مليون درجة مئوية .. هي درجة حرارة لا نعرفها على الأرض .. تصور هذا كله داخلك يا سيدي .. داخلك أيضاً ثلج بسبب مسافة البعد .. إنني أتمزق يا مولاي .

قرأ عليَّ الشيخ وهو يبتسم قوله تعالى : «وجعلنا بعضكم لبعض فتنة .. أتصبرون» .

قلت لمولاي مجاملاً ومنهاراً في نفس الوقت : أصبر إن شاء الله يا مولاي .

....

زارني الشيخ في المنام .. وألقى إليَّ بكتاب منها ..

لم أكن أعلم أن شيخي يعرفها أو يتلقى منها ما تكتبه إليَّ .. كانت تقول في خطابها :

ـ لأنك تعودت الحب ، ولأنك تخاف الآن خيانة المحبين ، لم يبق إلا أن تبدأ رحلة ضياعك العظيم في الأرض .. وليبدأ عطشك لنوع جديد من أنواع الحب .. نوع لا احتمال فيه لخيانة الغروب ولا وجود فيه لغير جلال الحب وحده .. هل تجد غير الله ..

لماذا لا تبدأ رحلتك إليه .. ستأكل في حدائق التوبة من ثمار الندم

والبؤس التي أزهرت بسبب غيبتك عنه وتفريطك في حبه .

ماذا لو تعلمت الصوم عن الدنيا خلال طريقك إلى الله .. تتعذب اليوم بسببي وتكرهني قليلاً ، لكنك غداً سوف تشكر لي أن قدتك إلى الله .

....

....

لست أعرف هل بكيت وأنا نائم أم خيّل إليَّ أنني أبكي .. لماذا رفضتني .. لماذا رحلت .. لماذا يشيع النقص في الحياة .. لماذا نجد ما لا نريد ولا نجد ما نريد .. لماذا قالوا للنصراباذي : ليس لك من المحبة شيء . ولماذا رد عليهم بقوله : ولكن لي حسرات المحبين ..

زارني شيخي الصوفي مرة ثانية .. قال وهو يشير بيده :

ـ اذهب غداً إلى حدائق التوبة .

وخيّل إليَّ أنني سمعته يقول حدائق الندم .

حدائق الندم

كان شيخي الصوفي يسميها حدائق التوبة . وكانت نور تسميها حدائق الندم ، وأحسب أن اسمها الحقيقي هو الجحيم .

يتصور الناس أن الجحيم نيران تشتعل حولك . نيران تأكل الجلد فيعود إلى الحياة فتعود تأكله فيعود إلى الحياة .. يرسم القرآن للجحيم هذه الصورة . غير أن كل إنسان يختلف عن غيره . خلق الله كل إنسان على صورته التي تختلف عن صورة غيره . تختلف بصمات الأصابع ، وذبذبة الصوت ورائحة العرق ولون الفكر واستجابة النفس ومذاق الروح .. وإذن فإن ما يعذب إنساناً قد لا يكون كافياً لتعذيب إنسان آخر .. والنار التي تشتعل حولنا قد تحرقنا فنموت ، وبذلك يتوقف العذاب ، غير أن هناك ناراً تشتعل داخلنا فلا نموت . تحرقنا ونحن أحياء . تقوضنا من الداخل وتنتشر يوماً بعد يوم ونحن نعيش .. تأكل الجلد الذي يموت وتجدد فيه الخلايا فتعود تأكله .. ويتم هذا ونحن أحياء . أي شيء أرهب من هذه النار .. أسير في حدائق الندم .

يوم ٦ سبتمبر انفتحت أمامي كل أسوارها فجأة .

أحس هنا بغربة غامضة .. وليس ثمة من أحدثه ، وكلما تحدثت لنفسي ازداد اضطرابي ويأسي ، وكلما أفضت في التعبير عن نفسي

تكشف لي عجزي وحاصرتني المخاوف . أبحث عن معنى جديد لكلمة الندم .

الندم . هذه هي الثمرة الوحيدة المريرة التي يسمح لنا باقتطافها من حديقة الذكريات .

أسير في حدائق الندم . يخيّل إليّ أنني قلت هذه العبارة قبل ذلك . لا أذكر متى قلتها ولا بأية مناسبة . لماذا أكرر أن لي يوماً واحداً هنا . يخيَّل إليَّ أن هذا وهم ، وانني هنا منذ عشرة آلاف سنة ضوئية .

توهمت أن اليوم هو الأحد . سألت أي يوم نحن . لم يعرف أحد . ليس هناك قمر ولا شمس ولا نجوم . السماء سوداء تماماً وغير موجودة .

استمعت إلى نشرة الأخبار .

لم أفهم شيئاً . سقط ثعبان من أعلى السلالم فالتوت قدمه . وضعت إحدى القطط ثلاث كلاب بيضاء . تعلق الأسد بأغصان الشجرة ونزل القرد يزأر في الغابة أغارت ثلاث نملات على قطيع من الفيلة وأبادته . قالت سمكة القرش للحوت يجب أن تنقرض ـ فانقرض ، أكل الخفاش كل الفراش الملون فالرجاء ممن كان يحتفظ بفراش ملون أن يقدمه لمتحف الندم .

أغوص في العدم . أي غابة ينقلون أخبارها . لا معنى لشيء . أحاول أن أركز ذهني عبثاً . ذهني يتشتت مني ويتوه في فضاء غريب ممتد . سألت ألف سؤال فجاءتني الإجابة ألف سؤال . لا يجيبك هنا أحد .

أسير في حدائق الندم .

أحاول أن أفكر . هبَّ نسيم يشبه أنفاسها المعطرة على جبهتي ..

أمسكت بالذكرى وانحنيت على الكون . من أين جاءت رائحتها .

لو عرفت من أين جاءت رائحتها لا حتملت كل شيء ..

كانت نور هناك .. وهناك طعم ثلج فوق شجرة التفاح ، وهناك دفء رمال تمتد أمام شاطئ من الخمر ، وهناك عشرة آلاف زهرة لا أعرف أسماءها تنشر أريجها معاً . وثمة نجم يولد في السماء ونحن نشهد ميلاده معاً . والنجم شمس بعيدة . والنجم يقترب والدفء يمسح وجهك أكثر . عطرها الخاص بغير أن تتعطر كان مزيجاً من هذا كله . وقد كنت أدفن رأسي في صدرها وأشم رائحتها وأحاول أن أعرف أي جزء من العطر يمر أمامي في هذه اللحظة .

ودائماً لم أكن أعرف ...

هل هي أشجار التفاح أم رمال الشاطئ أم إحدى الزهور العديدة ...

لو استطعت أن أعرف فربما نجوت ...

لم أكن أميز أي نوع من العطر هو الذي أضع رأسي فيه . كنت مشغولاً بها عن اكتشافها . كنت ذائباً فيها غير ملتفت إليها . وتلك خطيئة أولى وبعدها يبدأ الطريق للجحيم .. اليوم أعرف أي عطر كان يمر أمامي بعد أن مرَّ العطر ومرت هي وذهبت الأرض التي تقف عليها وصارت المعرفة وانعدامها سواء .

....

أسير في حدائق الندم .

وجدت رجلاً يقف على شاطئ نهر من الدموع . عرفت فيه شيخ الصوفية الأكبر محيي الدين بن عربي . أسرعت نحوه ..

ــ مولاي ابن عربي .. كنت تقول ان عذاب الجحيم مشتق من

العذوبة .. وعلى ذلك فعذاب أهل النار ضرب من النعيم ، إذ لا عذاب على الحقيقة .

قال ابن عربي : قلت بيتاً بهذا المعنى غير انني نسيته .. هل تذكره أنت .

قلت له : قلت في الفصوص :

يسمى عذاباً من عذوبة لفظه وذاك له كالقشر والقشر صائن

قال : تذكرت الآن ..

قلت : أما زلت تقول إن العذاب مشتق من العذوبة ؟..

قال : نعم ، غير أنه شيء فوق قدرة احتمال الطاقة البشرية ..

تركني ومضى ..

في جحيم الندم أساتذة تنتدبهم الإدارة المجهولة وتوظفهم داخل نفسك ..

ذكرياتك القديمة . ترفع كل ذرة منها رأسها داخلك . وتبتسم لك الذكرى ولا تستطيع أنت أن تفهم هذه البسمة . تعرف أنها وهم . لا حقيقة الآن أمامك إلا العذاب . أنت لا تعرف في حدائق الندم هل معك أحد . هل جوارك مخلوق . أنت وحيد ولكنك تسمع أصواتاً وترى أناساً وتقابلهم وتتحدث معهم ثم ينقطع الحديث فجأة وتكتشف أنك كنت تتوهم .

أرتدي بيجامة متسخة قليلاً من جهة اليسار ، عندما أثني رأسي جهة اليسار وأستنشق رائحة البقعة السوداء أعرف كم قطرة من البنفسج وكم ذرة من الياسمين وكم جزيئاً من الفل وكم بقعة من الكحل وكم دمعة صنعت هذه البقعة . كانت تبكي وجرفت الدموع الكحل

وأفسدت زينتها وظهر وجهها على حقيقته أجمل .

المعرفة الآن عذاب آخر .

الرائحة هنا وهي ليست هنا . خيّل إليّ أنها هناك ..

انطلقت أجري واصطدمت به ..

هذا شيخ الغرباء في الدنيا أبو حيان التوحيدي . ما الذي يفعله في حدائق الندم يا ربي هو الآخر .

قلت له : لم تر أحداً يمر من هنا يا سيدي ؟..

قال : من ؟.

قلت : نور ..

قال التوحيدي : الدنيا ظلام مطبق . لماذا كنت تجري ؟.

قلت : أحسست بالغربة ..

قال : لماذا تحس بالغربة ؟.

قلت : أليس الغريب من جفاه الحبيب .

قال التوحيدي : بل الغريب من واصله الحبيب . بل الغريب من تغافل عنه الرقيب . بل الغريب من نودي من قريب . بل الغريب من هو في غربته غريب ..

حاولت أن أفهم عبارته .. هل يريد أن يقول أن الغريب قد ارتفع فوق معنى الغربة عن الحب والعطش . إلى معنى الغربة عن الغربة بعد أن صارت الغربة نفسها وطناً له . هل يريد أن يقول ذلك ..

قلت له : أفصح أكثر يا مولاي ..

قال التوحيدي : أين أنت من غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه ، ولم يتزعزع من مهب أنفاسه . أغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه ..

أغرب الغرباء من تأتيه الغربةمن باطنه .

قلت للتوحيدي : أي شيء أدعى لخيبة الأمل واليأس في الحياة ، أن تعتقد وتؤمن بجدوى ما تبذله في الدنيا من مجهود ، ثم ترى عما قليل أن مصيرك قد تحدد بنفسه ومن تلقاء نفسه وكأنك لم تشارك فيه أدنى مشاركة .

قال التوحيدي : لم أصرح بذلك فانصرف عني . كفاني ما لقيته في الدنيا من بؤس ..

وتركني ومضى .

عدت أتساءل :

ـ لماذا أحببت هذه الرائحة بالتحديد .

قال لي صوت مجهول لا أعرف أين مصدره :

كنتما متجاورين في الطين .. قطعة الطين التي خلقت منها كانت جوار قطعة الطين التي خلقت هي منها .

قلت : هذه مصادفة ..

قال : قانون التوافق يلعب دوره كما قدر الله له في علمه الأزلي .

قلت : أليست هناك قطعة طين تشبهها ولو من بعيد ..

قال : ليس هناك مخلوق له رائحة مخلوق آخر أو بصماته أو صوته أو لونه أو معناه .

هل تتصور أن الله سبحانه وتعالى يكرر مخلوقاته .. أنت معتوه .

صرخت : لست معتوهاً .. إنني نادم ..

قال : بل مجنون ..

صرخت : بل نادم .

ظللت أصرخ بالندم ، ويرد عليّ الصوت الآخر بالجنون ، ثم صمت فجأة .. وأفزعني صدى صوتي وهو يرتمي في الفراغ فسكت .

أسير في حدائق الندم .

وجدت أبا الطيب المتنبي يجلس جوار كوخ مقفر وهو يقرأ شعره :

قد كان يمنعني الحياء من البكا فاليوم يمنعه البكا أن يمنعا

أصدرت بفمي صوتاً لأنبهه إلى وجودي فالتفت إليَّ :

ـ حتى أنت يا سيدي الشاعر تزور حدائق الندم . ؟.

قال المتنبي : نادم لأنني مدحت سيف الدولة أكثر مما يجب ، وهجوت كافور الاخشيد أقل مما يجب .

قلت : لم تزل لك كبرياؤك كما كنت ..

قال المتنبي : تزيد كبريائي يوماً بعد يوم . هذا عالم تضيع فيه لو كنت بلا أنياب .. ما الذي جاء بك ؟..

قلت : بيتان من شعرك .

ممثلة حتى كأن لم تفارقي وحتى كأن اليأس من وصلك الوعد

وحتى تكادي تمسحين مدامعي ويعبق في ثوبي من ريحك الند

قال المتنبي : تتمثل لك حتى لتشم رائحة عطرها .

قلت : تماماً ..

قال المتنبي : لماذا لا تكمل القصيدة ؟.

إذا غدرت حسناء وفت بعهدها فمن عهدها ألا يدوم لها عهد

كذلك أخلاق النساء وربما يضل بها الهادي ويخفى بها الرشد

أحسست بحقد مفاجئ تجاهه .. ودرت بعيني أبحث عن فك حمار أقتله به كما فعل قابيل فلم أجد .

قلت له : إنك تخرف . أنت لا تعرف نور .

قال : تقول إنني أخرف . ما معنى ذلك ؟.

قلت : معناها أن كلامك سقط من القول ولغو .

قال : صارت الجرأة على مقامي أحد أقداري السوداء .. انصرف أيها السيد من أمامي على الفور .

انصرفت عنه حانقاً لا أعرف أين أذهب .. ثم قدرت في نفسي انني مهتاج قليلاً وربما أكون قد أسأت إليه ، ثم تذكرت ما قاله عنا في هجائه لكافور الاخشيد ، ثم قدرت انه يستحق ما حدث ، ثم عدت أتذكر عبقريته ورقة أحاسيسه وعنفي معه ، وقررت أن أعود لأصالحه .. وقلت لنفسي إن الحديث معه على أي حال أفضل من الوحشة .. واستدرت له فلم أجد أحداً هناك ..

اختفى هو الآخر ..

عدت أسير في حدائق الندم .

الأمل الوحيد هنا أن تمتد بوجودك حتى الغد وليس هناك غد .. وبالتالي فلا أمل أمامك على الإطلاق .. وجحيم الندم طبقات ، وهي طبقات مختلفة ، قد تكون الطبقة ذكرى عطر مرّ عليك ولم تتبين من أي زهرة ولد . وقد تكون الطبقة ذكرى لحظة حب ضاع ولم يعد لك منه غير الضياع . وقد تتمثل طبقة الجحيم في وقوفك فوق أرض حوار نصفه منها ونصفه منك .

«موسيقى بعيدة .. هو وهي يتحدثان» .

هو : كيف حالك ؟

هي : أبداً ..

هو : شاحبة وصامتة لماذا ؟.

هي : أبداً ..

هو : سرحانة كأنك لست معي ..

هي : أبداً ..

هو : أريد أن أخفف حزنك ..

هي : أشكرك ..

هو : فكرت أمس في أسباب حزنك . هل أنا على حق ؟.

هي : أي أسباب ؟.

«نظر إليها ففهمت» .

هو : هذا ما يحزنك .

هي : نعم .

هو : سأفعل كل ما تريدينه .

هي : لا تلعب بعواطفي .

هو : أنا جد .

هي : لقد حاربت طويلاً لذلك .. أخيراً .

راقب التغير الذي طرأ على وجهها وجسدها ، إن جسدها يتخلى عن همودِه . وثمة تعبير من الفرح يولد في العينين اللتين لم يعشق أعز منهما في حياته .. وقرر بينه وبين نفسه أن لا يخذلها من أجل هذه اللحظة من الفرح . قالت ووجهها يضيء : أريد أن أرقص .

قفزت واقفة وراحت تدور في الغرفة . أريد أن أرقص .. ألقت بنفسها عليه واحتضنها وهو يحس أنه لا يستطيع أن يغضبها . أو يكرهها أو يهجرها .

أحس بهذا فجأة . واحتل كيانه شعور آخر بأنه يحبها حقاً . وأنه يحس بالراحة العميقة لاكتشافه هذه الحقيقة . وغفر لها وهو يستنشق رائحة شعرها كل جرائمها القديمة وخطاياها وقسوتها وأنانيتها وقدرتها الرائعة على المجاملة والظهور بمظهر الطفلة البريئة .

أحس وهو يحتضنها أنه قد ولدها في عصر من عصور التناسخ القديمة . كان أباها قبل ميلاد المسيح ، وكان ابنها في العصر الفاطمي ، ثم صادفها كحبيبة في القرن العشرين . ومثلما يغفر الأب لابنته أخطاءها ويقول لنفسه : لو أحسنوا معاملتها ما أساءت هي .. لقد أساءوا جميعاً إليها ..

كذلك فعل هو .. عاد يشدد ضغطه عليها . وتذكر يوم بكت أمامه وهي ترتدي ثياب الحداد السوداء .

بدت يومها مثل دمعة تنحدر من عين نبي وتضم ملح الصدق الذي لم يعد له وجود في الوجود .

عاد يضم كيانها إلى صدره . ويحس بعذوبتها وضعفها وحاجتها إليه . وأحس بالراحة العميقة فجأة . زايله بعد ثوان من حديثه معها كل إحساسه المفتت بالعذاب . حين تصور أنه يمكن أن تخرج من حياته سقطت رغبته فيها تماماً . لم تعد تثيره .غرق توقه إليها في محيط عظيم من الخوف . انها يمكن أن تذهب . يمكن أن تخرج من حياته . كانت هذه المصيبة لا تسمح له أن يفكر في جسدها . انحصر تفكيره فيها كإنسان .. كمخلوق صديق ذكي المشاعر وشديد العذوبة .

سألت فجأة : لست أفهم ما الذي تخسره لو ارتبطت بي .

كانت تقنعه أنه لم يخسر شيئاً . ولم يكن في حاجة للاقتناع بشيء ،

غير أنه يحبها ويريدها أن تكبر بسرعة ، وتشيخ وتهرم ليثبت لها كم يحبها رغم أنها عجوز لا ينظر إليها أحد .

. . . .

الجحيم درجات وطبقات ..

والندم هو الثمرة الوحيدة التي يسمح لنا باقتطافها هنا من حديقة الذكريات .. وليس هناك غير طريق واحد للخروج من الجحيم ، وهذا الطريق هو الصوم .. .

أن نصوم عن ميلنا للأشياء .. أن نتجرد عنها ونتخلع منها ونفطر على ذكر الله وحده .

. . . .

حدثني شيخي بأن شيخه أخذه من يده وأجلسه في إيوان ، ومد يده فأخرج كتاباً وأخذ يقرأ ، فتطلع شيخي لمعرفة هذا الكتاب . ولمح الشيخ هذه الحركة فقال :

ـ إن مائة وأربعة وعشرين ألف نبي ، بعثوا ليعلموا الناس كلمة واحدة هي الله .. فمن سمعها بأذنه لم تلبث أن تخرج من الأذن الأخرى . أما من سمعها بروحه ، وطبعها في نفسه ، ونفذت إلى أعماق قلبه . وفهم معناها وألهم حبها ، فقد انكشف له كل شيء ..

لماذا جئنا

الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يثير غبار الأسئلة حول ذاته قبل مجيئه ، وهو المخلوق الوحيد الذي لا يكف عن طرح الأسئلة على نفسه بعد مجيئه .

قبل خلق الإنسان تساءل الملائكة : «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبِّح بحمدك ونقدِّس لك» . وكان استفهامهم موجهاً إلى الله تعالى ، ولم يكن سؤالهم سؤال إنكار . وقد رد الله تبارك وتعالى عليهم بقوله : «اني أعلم ما لا تعلمون» .

بعد خلق آدم . قال خالقه عنه : «وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً» .

هو المخلوق الوحيد الذي لا يسجد طواعية واختياراً بغير أن يفكر ، تسجد النجوم والشجر ولا يسجد الإنسان إلا بعد أن يفكر .

«والنجم والشجر يسجدان» .. «فبأي آلاء ربكما تكذبان» .

لا نكذب بشيء يا رب . إنما نسأل فقط .

لماذا خلقتنا ؟ لماذا خلق الله العالم ؟

في البدء لا يسأل المرء نفسه ..

في البدء يوجد المرء .. مجرد وجود .. ثم يتطور هذا الوجود إلى الحياة ، ثم يختلط هذا الوجود بالحياة .

ويبدو لي أن هناك سلّماً صعودياً للقيم في الحياة ، وفي موضع ما من هذا السلم ، يوجد خط لعله وهمي . إذا كان المرء تحته فهو «يوجد» ، وإذا كان فوقه فهو «يحيا» .

نحن نوجد فقط حين نؤدي عملاً لا نحبه أيضاً نوجد حين لا نرى حولنا غير المناظر العتيقة وجدران المدينة القديمة والأحلام الميتة والآمال الصريعة والشوارع المألوفة والغرف والأثاث والثياب ، نحن نوجد فقط حين لا نرى جديداً في الحياة ، وحين نفقد القدرة على الأحلام أو التمرد على الحب . هذا كله يندرج تحت درجة من درجات الوجود .

إنما نحيا حين نحب . وحين نكون عرضة للخطر ، وحين نفكر في الجبال والبحار والنجوم ونحاول إخضاعها بالعلم أو بالشعر ، نحن نحيا حين نلعب وحين نحلم وحين نضحك من قلوبنا ، أيضاً نحس بالحياة حين نكون بمحضر حزن صادق .

ومعظم الناس يوجدون فقط . وقليل منهم يحيا . ولكي يكون المرء حياً يجب أن يملك القدرة على أن يستقل بعقله عن البيئة المادية وهموم الحياة ومشاغلها .. ومعظم النوع الإنساني مغموس تماماً في مشاكله ، وليس لديه وقت ليفكر في أحلامه ، إنما يعيش مثل وحوش الغابة في صراع دائم من أجل قطعة اللحم وقطعة الأرض .

وتشترك الدواب مع وحوش الغابة في انصراف همتها لقطعة الأرض وما فوقها من الكلأ . ويشترك عديد من الناس مع الدواب في انصراف همهم للقمة الخبز .

هل خلقنا الله لذلك ؟

قمت باستفتاء صغير في محيط الأسرة والأصدقاء لأعرف لماذا خلقنا الله .

سألت أخي الموظف لماذا خلقك الله ؟ قال : كي أنفق على جيش الأولاد الذي أنجبته .

وسألت صاحب المسمط الذي أشتري منه الكرشة للقطط : لماذا تتصور أنك جئت لهذه الحياة ؟ قال : كي آخذ محل الكرشة الذي أنا فيه وآكل منه عيشاً .

وسألت قريباً غنياً : لماذا تتصور أنك هنا ؟ قال : كي أمارس هوايتي وأصنع ثروة .

وسألت قريباً فقيراً : لماذا تتصور أنك خلقت ؟ فقال : إن أملي معلق بالجنة . والجنة ثروة .

وسألت شيخ المسجد : لماذا خلقك الله ؟ قال : كي نعبده فندخل الجنة .

وقمت بتجربة صغيرة فوقفت في ناصية لأحد شوارع القاهرة ، ورحت أستمع لما يسقط من حوار الناس وهم يمرون بي ، فلم أسمع أحداً يتحدث إلا في النقود والهموم المنزلية والأمراض . لم أسمع أحداً يتحدث عن قصة حبه .

هل كف الناس عن الحب يا ربي ؟

وهذا كله يؤكد أن الإنسان يهتم أكثر مما يجب بلقمة الخبز .. كيف قال السيد المسيح إذن : «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» .

هل كان يقصد أن الإنسان يوجد فحسب بالخبز . كيف يحيا إذن

إن كان الخبز وحده مجرد وجود . هل يجب أن يعرف الحب لكي يقول انه عرف الحياة .

....

في شبابي كنت أتصور أن الله قد خلقنا لنعبده ، تصورت يومها ان العبادة هي حركات الصلاة وامتناع الصوم وتمتمة الشفاه بالشهادة ، وكنت أمارس العبادة وأحس أنني لا أفعل شيئاً .. وبدأ التيار المتقطع يغزو حماسي . يوماً أصلي وعشرين لا أفعل . ثم انقطع التيار . ثم كبرت أكثر وعثرت على تفسير أعمق لمعنى العبادة ، فسرها ابن عباس بالمعرفة .

قال تعالى : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» قال ابن عباس : إلا ليعرفون .

المعرفة أشمل من العبادة وأعم ، ينفتح داخلك كون على الكون الأكبر . تفهم أن عليك أن تبدأ رحلة السفر في الكونين معاً .. غير أن كل شيء في الدنيا نسبي ، والمعرفة الإنسانية نسبية وناقصة وتتغير . لا بد أن يكون سبب الخلق شيئاً أكبر من مجرد المعرفة . أن يكون سبب الخلق قمة من قمم المعرفة .

أيكون سبب الخلق هو الحب ؟

هذا هو رأي الصوفية .

يعتقد الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ، أن الله قد خلق العالم ليقدم العالم حبه إلى الله . ويرى ابن القيم أن الله قد خلق العالم ليعبده ، والعبادة هي قمة المحبة وكمالها .

سألت نفسي : لماذا يريد الله منا أن نحبه ؟

وأشهد أنني لم أعرف الجواب إلا بعد تجربة مريرة من تجارب الأرض .

....

في بداية لقائه بها ..

على نهاية طريق الصداقة ومشارف أفق الحب . لم تكن « نور » تمثل له غير نوع محير من البشر . ثمة قارة جديدة لم تكتشف بعد ، وفي الصدر آمال رجل يحلم باكتشاف الدهشة ، ويفكر في لغة كونية جديدة للاتصال بهذا المخلوق الرقيق الحالم الذي أسيئت معاملته حتى أصبح أقرب إلى الحزن والقسوة .

في البدء كانت اللغة هي المشكلة . .

في اللقاءات الأخيرة معها ، كان السؤال الوحيد الذي يتردد في ذهنه .. إلى أي حد تحبه هذه المخلوقة القلقة الساحرة . هل يزيد حبها أم ينقص ؟.. ان قلقاً يثيره هذا السؤال في ذهنه فيميته ويحييه في اليوم الواحد عشرات المرات ، وهو يريد أن يعرف منها الحقيقة كما يعرفها الخالق ، وهو لا يرجو أكثر من أن تحبه ، وهو يجاهد كبرياءه كي لا يلقي بنفسه عليها ويسألها أن تحبه . وكان حين تلقي بنفسها عليه يسألها : لماذا تحبينني .. أي شيء فيّ يستاهل الحب . .

كان يبدو على الدوام في أعين النساء مختلفاً عما هو في واقع الأمر ، يبدو لهن على غير حقيقته . لم يحب أبداً . لقد عرف كل شيء ما عدا الحب . تماماً مثل جوروف بطل تشيكوف . ولكنه الآن فقط ، عندما أخذ الشيب يكتسح رأسه ، قد طفق يحب أخيراً ، .

كانا يتحابان مثل كائنين قريبين . مثل زوج وزوجة . مثل صديقين

ليلة القدر

الليلة ليلة القدر ...

نحن لا نعرف أي ليلة هي في الشهر ، أخفيت لحكمة ..

أغمضت عيني وتركت عقلي يمضي وحده . الشارع غريب وطويل ولا أعرفه .. على جانبيه ألف برج لألف ساعة محطمة . وكل ساعة تحولت إلى عش للطيور ، ساعة تضم حمامة ، ساعة تضم حداية . ساعة تضم يمامة . وساعة تضم صقوراً وليس هناك نسر واحد . الصمت مطبق . سكتت العصافير تماماً حين ظهر الملكان . قال الملاك الأول للملاك الثاني وهما يسيران :

ـ جمعنا عدداً طيباً من أدعية الناس والمخلوقات في ليلة القدر .

قال الملاك الثاني :

ـ أكثر من أي عام مضى . نفرزها الآن قبل أن نبعثها .

قال الأول :

ـ أوكي .

بدأ الملاك يقرأ أدعية الناس في ليلة القدر ..

دعت السيدة العجوز في ليلة القدر فقالت :

ـ اللهم إن الروماتيزم في جسدي قد ارتهن ، ونظري قد ضعف

يخلق .. من يوجد من العدم . كان يعرف أنها تعبده .. لكنه كان يحبها بأكثر مما كانت تحبه .

....

لماذا يريد الله منا أن نحبه ؟

لله تعالى المثل الأعلى في السموات والأرض .

لا يطلب الله منا أن نحبه إلا إذا كان يحبنا أكثر مما نحبه .

لا يطلب أحد من أحد أن يحبه إلا إذا كان يسبقه بفضل الحب .. فما بالك بخالق له فضل الخلق ابتداء والإيجاد والإنعام والبعث انتهاء .

الفارق بين حب الله لنا وحبنا البشري لامرأة أو زهرة .. أننا نكمل أنفسنا الحائرة حين نحب ، ونكمل ذواتنا الناقصة حين نحب ، ونحتاج إلى من نحب ولهذا نحب .

تعالى الله علوّاً كبيراً عن هذا كله .

في البدء كان الله . ولا شيء غير الله . ولا شيء مع الله . قائم بنوره وكبريائه وحده . استغنى بذاته عمّن سواه ، وافتقر إليه ما عداه . وما كان هناك سواه . ولا كان هناك ما عداه .

ولأن الله تعالى هو الله ، وهو الخالق ، ولأنه يعلم سبحانه افتقار من لم يخلق بعد من خلقه إليه .

ولأن مشيئته تنفذ بمجرد الأمر ، تتوجه إرادته سبحانه إلى الخلق فيأمر الكون بالمثول بين يديه ، حضوراً من العدم ، طائعاً أو كارهاً ، فيمثل الكون بين يدي الطاعة .

«ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين» .

ثم تشاء إرادته سبحانه أن يفيض من رحمته وحبه فيخلق الخلق ..
ويمضي فيض الرحمة والحب فيخلق من آدم وزوجه النوع الإنساني .
ويفيض فيض الرحمة والحب فإذا نحن نستمع لمزامير داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى وقرآن محمد .

....

قال شيخي الصوفي :

ـ من العدم المطلق ، إلى بلايين النجوم ، إلى قطعة الصلصال ، إلى الخلية الحية ، إلى مخلوق يكتب الشعر ويبحث في السماء ويعرف الحب ويجرؤ على إنكار خالقه . يعطيه خالقه العقل الإنساني ويعطيه أدوات الجدل ، ويمنحه حرية يؤمن بها أو ينكر .

أي قدرة وأي حب ..

ربنا لا نحصي ثناءً عليك . أنت سبحانك كما أثنيت على نفسك .

....

هكذا ينظر الصوفية إلى العالم .. انهم يرون الحب قانوناً حاكماً في الوجود ، وسبباً في ميلاد الكون ، ونسيجاً يشف به ثوب الكون على رحابته وجلاله ، وهم يرون أن الله خلقنا كي يتفضل علينا بحبه ، ويتفضل علينا مرة ثانية بأن يسمح لنا بحبه .

«إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» .. فهل يشتري الله رغم أنه مالك كل شيء .. هل يشتري إلا شيئاً يحبه ..

....

كان ذو النون يسير في الصحراء حين صادفه شيخ يتعبد ..

سأله ذو النون :

ـ ما تجريد التوحيد ؟

قال الشيخ العابد :

ـ فقدان رؤية ما سواه .

سأله ذو النون :

ـ ما اسم الله الأعظم ؟

قال الشيخ :

ـ أن تقول الله وأنت تهابه .

قال ذو النون :

ـ كثيراً ما أقوله ولا تداخلني هيبة .

قال الشيخ :

ـ إنك تقول الله من حيث أنت .. لا من حيث هو .

قال ذو النون :

ـ بم تنصحني ؟

قال الشيخ :

ـ أن تحبه وحده . وقرأ الشيخ دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«اللهم إني أسألك حبك» .

ليلة القدر

الليلة ليلة القدر ...

نحن لا نعرف أي ليلة هي في الشهر ، أخفيت لحكمة ..

أغمضت عيني وتركت عقلي يمضي وحده . الشارع غريب وطويل ولا أعرفه .. على جانبيه ألف برج لألف ساعة محطمة . وكل ساعة تحولت إلى عش للطيور ، ساعة تضم حمامة ، ساعة تضم حداية . ساعة تضم يمامة . وساعة تضم صقوراً وليس هناك نسر واحد . الصمت مطبق . سكتت العصافير تماماً حين ظهر الملكان . قال الملاك الأول للملاك الثاني وهما يسيران :

ـ جمعنا عدداً طيباً من أدعية الناس والمخلوقات في ليلة القدر .

قال الملاك الثاني :

ـ أكثر من أي عام مضى . نفرزها الآن قبل أن نبعثها .

قال الأول :

ـ أوكي .

بدأ الملاك يقرأ أدعية الناس في ليلة القدر ..

دعت السيدة العجوز في ليلة القدر فقالت :

ـ اللهم إن الروماتيزم في جسدي قد ارتهن ، ونظري قد ضعف

ووهن ، وكان رطل اللحم البتلو على أيامنا بتلاتة تعريفة ، وكان ثمنه أقل من الكباب والنيفة ، وكان المتر من أغلى قماش ، بخمسة قروش يا بلاش ، فالطف بنا يا خفي الألطاف ، وارزقني بقطعة من واردات الأصواف ، للوقاية من برد الأكتاف والأطراف .

ودعا كمساري الأوتوبيس فقال :

ـ اللهم ان الزحام قد اشتد ، وفاقت الفوضى كل حد ، فوقفت ودموعي تسيل على الخد ، إذ انحشرت وسط ركاب لا يحصيهم العد ، ولا يفرقون بين الهزل والجد ، أسألهم عن التذاكر فلا أسمع أي رد ، وأحاول التحرك فلا أقدر أن أتقدم أو أرتد ، اللهم أسألك بحق ما لهذه الليلة من بركة ، أن ترزقني القدرة على الحركة ، وأن تنقذني إنقاذ السمكة من الشبكة . ماذا وإلا اجعل السائق يشتد به الضيق ، فينحرف بالسيارة في الطريق ، ويهوي بنا جميعاً إلى قاع النيل العميق الغميق . فلأن يموت الإنسان وهو غريق . خير له من هذه الخوازيق ونشفان الريق .

ودعت زوجة حلق زوجها شاربه فجأة :

ـ اللهم إنه كان عاقلاً ثم أصابه ما أصابه فانجن ، وصدق ان ذلك أقرب إلى الشباب والفن ، اللهم إن كان قد حلق شنبه ، من أجل امرأة عذراء أو عزبة ، سمينة في حجم الكنبة ، أو نحيفة كالحطبة ، اللهم اكشف أمره . وقص أو اقصف عمره . أو اجعلني امرأة بشنب ، لأعلمه الوفاء والأدب .

ودعا صاحب خمارة في ليلة القدر فقال :

ـ اللهم إن رمضان قد طال ، ولم يكن معنا كريماً كما يقال ،

فما كاد يقبل بعد رؤية الهلال ، حتى طفش في الحال ، كل زبائننا من الرجال والعيال ، اللهم يا كريم يا رزاق ، عجل لهلاله بالمحاق ، فقد أخذ الفقر منا بالخناق ، والفقر مر المذاق لا يطاق . اللهم ضاقت أخلاقي ، واتسع كالخرق في الثوب املاقي ، فإذا سمح العيد بالتلاقي ، وعاد الزبائن لري بطونهم الشراقي ، فارحم عبدك شوقي البولاقي ، فهو القائل معبراً عن أشواقي :

رمضـــان ولى هاتهـا يا ساقـي   مشتاقـة تسعى إلى مشتـاق

ودعا حمار فقال بنهيق الحال :

ـ اللهم إن البشر قد جاوزوا كل الحدود ، واستعملوا الرزالة بغير شروط ولا قيود ، وقد عيَّرونا بأننا حمير ، فصبرنا وظللنا نسير ، بينما ركبوا ظهورنا في عز الحر والهجير ، وقلنا ذلك علينا يسير . لكنهم استمروا في إيذائنا بالضرب والتحقير ، ووصفوا تنابلتهم بأنهم حمير ، بينما الحمير أذكى من أذكيائهم بكثير . وأنت بنا وبهم بصير .

يا ربنا بك نستجير وأنت جـار المستجير

أبناء آدم طلعـوا بالـذل إيمان الحمـير

وتجاهلوا خـدماتهم لهمـو وقـد عز المسير

يا مـن إليك المشتكى وإليك يا رب المصير

خـذ للحمير بذنبهم مـن ذلك النوع الحقير

إن ابن آدم عقله مـن بدء نشأتـه غـرير

قـد باع جنتـه بشيء تافه جـداً . حقـير

ما كان يعمل مثلـه حتى ولا جحش صغير

ودعا مجرم ليلي فقال :

ـ اللهم اعم عين الحكومة عنا ، ونكِّد عليها كما تنكِّد علينا ، اللهم اجعل بصرنا في الليل حديداً ، واجعل الحبس عنا بعيداً ، وأنم العسكري كلما استيقظ في الليل من جديد ، واجعل أجمد قفل يلين في يدنا كالثريد ، اللهم اهدنا في عز النهار ، إلى خزائن عبيدك اللصوص الكبار . الذين يسطون على الشعب المسكين البار .

ودعا كلب مسكين فقال :

ـ اللهم إنهم عادوا يطاردوننا في الطرقات ، ليقضوا علينا بالبنادق الأثريات ومختلف المبيدات المهلكات . ولا ذنب لنا عند هذه المخلوقات ، الذين هم أقسى من الوحوش في الغابات ، اللهم الا اننا نحرس الممتلكات ، ولا نشترك في السرقات ، وقد اشتهرنا من قديم بأحسن الصفات ، خصوصاً الوفاء بالذات . اللهم فأسخطهم كلاباً ، وأذقهم ما أذاقونا عذاباً ، فلعلهم من بعد ذلك يستحون ، ومن مطاردتنا والفتك بنا يخجلون ويومئذ يعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

ودعت نملة مسكينة فقالت :

ـ اللهم إن عبادك قد صاروا أوعى من النمل وأمكر . يغلقون النمليات ويتربسونها على السكر ، مع أن النمليات باعترافهم منسوبة إلينا ، وكان من العدل أن يوقف ما بها علينا . اللهم ألهمهم ترك النمليات مفتوحة في كل مكان . ووسِّع علينا في الرزق حتى لا تموت نملة من الحرمان .

يا مـن رزقت النـــــاس	كـل الناس قطاعي وجملة
أنت العـليـم بـأننـــــا	منهـم لقينا شر حملـــة

عملـــوا لنملياتهـــم قفــلاً وبئست تلـــــك عملـــة
أعطيتهــــــم مـــا يشتهـــون ويبخلـــون بقـــوت نملـــة

وقالت قطة ضاله كانت من قبل مرفهة :

ـ اللهم انتقم من عبادك الصحفيين الهائفين ، الذين يحشرون أنوفهم فيما هم فيه غير عارفين ، ويزعمون أن القطط تعدي الأولاد الصغيرين ، فيطردنا أصحابنا من بيوتنا ولا يرق لهم قلب أو يلين ، اللهم صحح أخبارهم ، وطول أعمارهم ، واملأ بالإعلانات أنهارهم ، وباعد أسفارهم ، وآتهم من العملة الصعبة والسهلة ما يملأ ديارهم ، ويحسن أفكارهم ، فلا يتعرضون للقطط ، وان ذلك لأكبر غلط .

وقال الموظف الذي عنده دستة عيال :

ـ اللهم إن العلاوة الجديدة تأخرت ، وماهية الشهر القادم كما تعلم تبعثرت ، والعيال ثائرون والزوجة بهم تأثرت ، فكشرت وزمجرت ، وفكرت وقدرت ، ثم قدرت وفكرت ، وسرعان ما غجرت وزمجرت ، وطاوعتها دموعها فتفجرت ، مع أنها عمرها ما وفرت ، اللهم ارزقنا العلاوة والرياسة ، واجعلنا مع الرؤساء في غاية السياسة .

صمنا بغـــير كنافـة وقطايـف وحرمت من سهري مع الأصحاب
وشكا مـــن الشك الذي شككته كل من البقال والقصاب
ولقد صبرت على كدا .. لكنني في العيد صبري مؤذن بذهاب
إن العيال لديَّ منهم دستـــــة أنجبتهم ـ طبعاً ـ بغير حساب
من أين لي بالكحك فيه وأين لي فيــه بأحذية وحمـــل ثياب

ودعا التلميذ الذي يحب ويذاكر :

ـ اللهم نجحنا في الإمتحان ، وحبب فينا كوثر بنت الأفندي سليمان ، وآت أبي العلاوة التي كان يحلم بها من زمان ، وزوّج أختي الكبيرة إحسان ، من رجل غني منكسر وغلبان ، كما تقول أمي في دعائها ساعة الأذان .

ودعا الشيخ ذو الجبة والعمة :

ـ اللهم أقسم السعود والحظ للعِمَّة ، واجعلهم في الكويت وأبي ظبي يطلبون أئمة . اللهم اجعلهم يختارونني للسفر ، لأدع الريف وأسكن الحضر ، وآتني ما يسعدني من العلم الغزير ، والملابس الشاهي والحرير ، والشيلان الثمينة الكشمير ، اللهم يسّر لي قطع تذكرة ، في أول باخرة أو طائرة ، حتى أعود بمرسيدس جاز ، تبعد عنا الفقر والنزناز ، واجعلنا نصنع من الوظيفة ، عمارة شاهقة منيفة ، حتى إذا قيل لمن هذا القصر ، قيل لشيخ من مصر ، كان يلقي في المسجد درس العصر .

يا ليلـة القـدر ... الله بـي يـدري
تسـع وعشـرون ... مضـين من عمري
والفقـر راكبـني ... بـه أنا أجـري
قـد داب مركـوبي ... مـن كـثرة السـير
وعمامـتي أيضـاً ... صـارت بـلا زر
والجبـة انقلبـت ... قـرابة العشـر
والجسـم أنحلـه ... نـومي عـلى الحصر
يـا رب قـدرني ... في ليلـة القـدر

....

قال الملاك الأول للملاك الثاني : أي شيء نرسله من هذه الأدعية ؟

قال : دعاء الحيوانات .

قال : والباقي ؟

قال : ألقه في سلة المهملات ..

قال الملاك الأول للملاك الثاني : لم نسمع دعاء العاشق ؟

قال : نقرأه بعد أيام ..

نريد أن نفرغ مما وراءنا من مهام .

دعاء العاشق

يبدأ دعاء العاشق هكذا :

كان حذاؤها البني مغلقاً من الأمام مفتوحاً من الخلف ، وكان يخفي أصابع قدميها ويظهر كعبيها . .

تأمل كعب قدمها الذي يقع في اتجاه بصره فترة .. كان الضوء يسقط عليه فيضيء الكعب الضوء الساقط عليه . ينبغي أن يدق الزنك طويلاً ليحصل منه على اللون الأبيض . وينبغي أن يبحث عن غزال ويصطاده ليكون دمه هو اللون الأحمر ، سوف يرسم كعب قدمها بهذين اللونين . لم يكن رساماً ، ولكنه راح يتأمل كعب قدمها كرسام قرر رسمها أخيراً . سيحتاج إلى لون أزرق ليرسم به العروق التي تشف تحت جلدها النضر . سيحتاج إلى اللون الأزرق الذي استخدمه قدماء المصريين . لم يزل هذا اللون سراً لا يعرف تركيبه أو تحضيره أحد . هو لون غريب يشبه ثوباً ترتديه السماء خمس دقائق في اليوم . الثوب الذي ترتديه بعد النور وقبل الظلمة مباشرة . لا يعرف سر تركيب هذا اللون غير الحاج أحمد يوسف الذي أعاد القطع المكتشفة من مركب خوفو الجنازي إلى أصلها الذي كانت عليه . كان لقاؤهما أمام مركب خوفو سراً مهموساً أشهدا به الموت على قصة حبهما التي كان عمرها ثلاث لقاءات .

قالت له يوماً : كان يوماً جميلاً وهادئاً .. لقد أحببتك في هذا اليوم .

كان هذا هو اللقاء الثالث لهما .. وعاد يتأمل كعبها ويفكر .. كيف يحصل على اللون الأزرق . يذهب إلى الحاج أحمد يوسف .. الرجل الطيب النقي الذي عرف أسرار قدماء المصريين وعرف أسرار الصوفيين في نفس الوقت ..

وعاد يتأمل كعبها ويفكر في ألوانه .. سوف يقوم بتحضير ألوانه مثل ميكائيل أنجلو وليوناردو دافنشي ورافاييل وفان جوخ وبيكاسو . لن يرسم بالألوان الجاهزة كعب قدمها أبداً . سيقوم بتحضير الألوان عاماً كاملاً قبل أن يبدأ الرسم .

نظرت هي في وجهه وتعقبت اتجاه نظراته ، أحست بالحرج فأخفت كعبها .. قال لها : استدارة قدمك من الخلف .. وملمس القدم من الناحية التشكيلية يشبهان كعب طفل ولد منذ ساعات ..

ـ حدثت نفسها : لهذا الحد يراني رقيقة .

قالت له بعد لحظة صمت مفعم : لم يقل لي أحد في الدنيا ما تقوله لي .. أين أذهب بعدك ..

أكانت تنظر في الأفق المشؤوم وتتنبأ بعكس ما سيحدث .. يا رب .. أنا لا أدري حكمتك ، ولا أفهم السر الذي يختفي وراء تدبيرك ، ولا أعلم لأي غاية عليا تمضي الأقدار بمشيئتك ، ولهذا تجدني حائراً يا رب .. ولهذا لا أعرف لماذا ولأي سبب ذهبت هي .. أنا غاضب قليلاً يا رب . أو قل انني عاتب ، وأنت يا رب تعرف الضعف البشري أفضل مني لأنك تراه من موقع القوّة الإلهية .. ولا أراه إلا من موقع

الضعف البشري . لقد غابت كثيراً يا رب ، ولست أعرف أحداً أتوجه إليه غيرك ... كيف تستجيب يا رب للناس ..

أيجب أن يكون المرء نقياً من الداخل كي تستجيب له ، أم يجب أن يكون مظلماً لكي تستجيب له . لست أعرف يا رب . أحياناً لا تستجيب للدعاء كي يحزن المرء فيزداد نقاء من الداخل ، وأحياناً تستجيب له كي يفرح المرء ويزداد ظلمة من الداخل .. ما أعجب تصاريف أقدارك يا رب .. سبحانك .

رغم قيام الحيرة داخلي لا أستطيع إلا أن أشهد أنك الخالق الوحيد ، وأنك المدبر الوحيد ، وأنك المبدع الوحيد ، وأنك خالق الحب وحدك. وأنك العظيم وحدك ، وأنك اللطيف بعبادك وحدك . لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين ...

أدعوك بهذا الدعاء ، هذا دعاء ذو النون وهو في جوف الحوت .

ليكن ما يكون من غضبه على قومه وخطئه حين غضب . مهما يكن من أمر غضبه الخاطئ فقد كان الرجل نبياً .. أليست رحمة أن تسمح لمخلوق مثلي ، أن يتمتم بشفاهه نفس الدعاء الذي تمتمت به شفاه نبي ، ولو كان هذا النبي مخطئاً .

أعترف برحمتك يا رب .. وأسألك النجاة من جوف الحوت .

....

لم يكن قد وصل إلى جوف الحوت بعد .. .

قال لها في المرة الثالثة التي التقيا فيها : لماذا ترتدين الصندل دائماً .

قالت : لا يعجبك .

قال : ليس ظريفاً .

قالت : لن ألبسه بعد اليوم .

قال : هل شاهدت طوال عمرك ملكة تلبس الصندل .

قالت وهي تضحك : تفسدني بتدليلك .

قال : أحد أحلامي أن أفسدك بالتدليل ..

قالت : لم لا تسميني نوشكا .. لماذا تصر على نور .

قال : يمتنع علينا تدليل الأسماء . ذلك جزء من احترامنا للشخصية . نور نور نوشكا ناديه نازك نرمين نرجس نهى نيفين .. ليس المهم هو الاسم .. المهم هو الحرف .. حرف النون .

....

....

«ن .. والقلم وما يسطرون» ..

يقسم الله بحرف وقلم وسطر من الكلمات ..

إن حرفاً واحداً يمكن أن يقود الإنسان إلى الله ..

حرف واحد .. لو فكر الإنسان في قدرة الله الممثلة في خلق الحروف ، وخلق الكلمات وجعلها رموزاً وإشارات ، وجعلها خطوطاً تحتوي داخلها على الكون الأكبر ، وتملك القدرة وهي تمشي على الأوراق أن تعبر عن ملايين الصور والأحلام والدهشة والاكتشاف . لو فكر الإنسان في ذلك لعرف قدرة الله وآمن .. إن الفارق الأول بين الإنسان والسلم الحيواني كله هو الحروف .. وظيفتها في عالم الإنسان وانعدامها في عالم الحيوان . تتفاهم الحيوانات فيما بينها بلغة خاصة ، غير أنها لغة غير مكتوبة .. عندما تكتب اللغة .. عندما تولد الحروف

تولد أضواء الحضارة .. ويولد الحب .. وتولد الفنون والآداب .. ويكتب هذا كله ..

ولقد كانت لهما لغتهما المكتوبة .

دخل الاثنان معاً في حرف النون .. هذا الهلال الذي تتعلق فوقه نقطة هي البداية الأولى في خلق العالم . أول ذرة خلقت .. أول ذرة أنشئت من العدم منذ بلايين السنين الضوئية . ما أعظم سعادة هذه الذرة .. هي التي شاهدت الله سبحانه وتعالى ، ومن هذه اللحظة الخاطفة التي تجلى فيها الله عليها خلقت بلايين الانقسامات وخلقت بلايين العمليات الكيميائية والرياضية والطبيعية ، وخلق العالم . وخلقت هي أيضاً ..

خلقها معجزة لا تقل عن معجزة الذرة الأولى ..

نحن هنا أمام أرقى المخلوقات . أمام إنسان يملك دفء الشمس ، وملح البحار ، وعذوبة الأنهار ، وتوهج النجوم ، ويملك القدرة على المطر وسقي حقول الروح وعودة أوزيريس الذبيح وقيامة الزرع واستمرار دورة الحياة ..

أي روعة ..

أحياناً كانت تبدو منطفئة من الحزن . وكان يحس بالحب نحوها يزداد ، فإذا رآها تتفجر بالفرح أحس بالحب نحوها يزداد . شيء ما في مشيتها وطريقتها في نطق الكلمات والسحر الذي يطل من عينيها . وهذه الكبرياء الهشة .. كان هذا كله هو عالمه الجديد الخاص ..

كان فيها شيء خاص .. عذب .. محير ..

....

روحها الغامضة كانت أكثر ما يشده إليها ... كانت تملك القدرة

على النظر في الأيام التي لم تأت بعد .. وكانت تملك القدرة على أن تلون عينيها بلون هذه الأيام ..

كانت تقف أمام رسام اصطحبه هو إليها .. وحين انتهى الرسام من نقل وجهها على الورق أطلت من عيني الصورة نظرة إنسان يطل من ظهر مركب على شاطئ يحترق عشبه الأصفر ..

ثمة انقباض العتمة ، والشمس حمراء تماماً ، وباردة تماماً ، ونصفها في الأفق ، ونصفها الثاني في مياه البحر التي بدأت تتحول إلى الدفء ..

وأنت على ظهر مركب يبتعد عن الشاطئ .. وعلى الشاطئ كل أحلامك وذكرياتك وأمانيك وساعات صفوك واسمك وكراريسك في المدرسة وخطابات أبنائك وصورة زوجتك ومصحف فضي صغير أهدته أمك إليك ، ومع هذا كله حلم بنجاح كنت تحلم به فوق أرضك . تصور هذا كله يحترق ، وأنت تشهد احتراقه من ظهر مركب يبتعد .

كان هذا هو التعبير الذي نقله الرسام يومها .. .

ويومها قال له :

ـ لم تستطع أن تلتقط تعبير العينين .

قال الرسام : أعتقد انني فعلت .. إن وهج الحريق الذي يمتد على الشاطئ يلقي بظلاله الحمراء على الوجه ..

قال العاشق : لماذا تفسر في وجهي نبوءتك المشؤومة . لماذا تصورت أن هناك حريقاً على الشاطئ ..

قال العاشق وهو يملأ صدره من هواء البحر فيزيد احتراقه :

ـ معك حق .. أنا الذي يحترق على الشاطئ ..

....

احترق على الشاطئ كل شيء باستثناء المصحف الفضي الصغير .. لم تبق إلا كلمات القرآن .. ومن بينها حرف النون ..

....

نور ..

انتظري قليلاً قبل ذهابك ..

انتظري خمس دقائق .. سأعتبر أن لقائي بك لم يبدأ في العشرين من سبتمبر وينتهي متراجعاً إلى الخامس من سبتمبر . سأعتبر أنني لم أرك غير ثانية واحدة .. انتهى الأمر والتقط عقلي صورتك وهي الآن جزء منه . سأحدثك عن شيء رأيته في نظرتك إليّ . لقد رأيت داخلي يا نور شيئاً لست أنا هو .. رأيت شيئاً كان بإمكاني أن أكونه ، وقد أصبح لزاماً عليّ أن أكونه . لست أعرف اسمه وحقيقته ، ولا أستطيع رؤيته أو اكتشافه . غير أنني أثق انه كان موجوداً . كان موجوداً وأنت تنظرين إليّ . كان هنا منذ لحظة . طار عبر المرأة واختفى داخلها . بعدها شعرت به داخلي في الرغبة التي قامت لأكون هذا الشيء الجليل النبيل الذي رأيته في ..

إن عينيك أكثر صفاء من عيني . ولقد رأيته أنت ولم أره أنا .. ولكنني أقسم انه كان موجوداً في عينيك منذ لحظات ، ولم يكن في الغرفة غيرنا .. وأنا أريد أن أكون هذا الرجل يا نور .. ان أحداً غيرك لم يكتشف داخلي هذا الفنان النائم الذي خلقه الله داخل نفس كل إنسان .

هل تعرفين يا نور كيف أفكر الآن .. انني أحلم أن أرحل إلى القطب الشمالي أو أغوار الأردن .. أحلم أن أموت لإصلاح بؤس لم تصنعه يداي .. لقد صرت أفكر كإنسان .. هذه أحلامي يا نور .. أما حياتي فهي قلقة وغير مستقرة ومحزنة بدونك . غير أنني أحاول بشكل يائس ورهيب أن أكون هذا الذي رأيته يوماً ما .. كل شيء فيما عدا ذلك . كل أحزاننا وأسانا وبعدنا سوف نعتبره شيئاً لم يخلق بعد يا نور .

....

ينتهي دعاء العاشق هكذا .

اللهم إنني أسألك أن تقذف في قلبي منك نوراً يطفئ نور ..

....

....

قال الملاك الأول للملاك الثاني : ما هذا .. ليس هذا دعاء .

قال الملاك الثاني : شيء محير جداً . لم أفهم كل ما قرأته ..

قال الملاك الأول : لن نأخذ الدعاء معنا ..

قال الملاك الثاني : انظر فيه لعل هناك حاشية أو بقية .

قال الملاك الأول : انظر أنت بنفسك .

قال الملاك الثاني : أميل لأخذ الدعاء .. يبدو أن صاحبه يتعذب ..

قال الملاك الأول وهو يكرمش ورقة الدعاء : هذا هذيان رجل مريض .

قال الملاك الثاني : لا تكرمش الورقة .. حرام . انه يقول انه يريد أن يصير مثلنا ملاكاً .

قميص يوسف

قال الصوفي الكبير أبو الحسن الشاذلي في أحد أحزابه وهو يدعو ربه «ربنا .. ألبسني التقوى منك» ..

ما الذي يقصده الصوفي بكلمته ؟ أتراه يعبر بلسان الرمز الديني عن تبديل الثياب الذي يعني تبديل السلوك والشخصية .. أغلب الظن انه يقصد ذلك . فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الحكيم : «ولباس التقوى ذلك خير» .

اعتقد القدماء أن ثوب المرء هو المرء نفسه .. وعلى أقل تقدير ، هو جزء منه ، اعتقدوا أن تبديل الثياب تعبير عن تبديل الشخصية ، فكأن من ارتدى ملابس جديدة قد ارتدى شخصية جديدة . وما زالت أساطير شعوب كثيرة تحكي إيمانها بأن ثياب المرء جزء من نفسه وشخصيته .. ولا يجوز حسب العادة الجرمانية القديمة أن يهب المرء بعضاً من ثيابه لأحد لا يعرفه ، وإذا ما تبادل صديقان أو حبيبان ثيابهما كان ذلك دلالة على أنهما قد تبادلا نفسيهما .

قبل أن تختفي نور .. سألتني يوماً : أريد منك قميصاً ..

قلت : لست أفهم .. لماذا ؟

قالت : أريد أحد قمصانك التي ارتديتها كهدية .

قلت : أليست هدية غريبة ؟.

قالت : أضع رأسي فيه عندما تغيب عني فكأنني أبكي على صدرك .

ضحكت .. لم أفهم ماذا كانت تقصد . لم أفهم أنها سترحل .. لم أتصور ظل النبوءة المشؤومة الذي استلقى من كلماتها على ما بيننا من حب ..

قلت : سأعطيك القميص الذي رأيتك أول مرة وأنا أرتديه .

قالت : لا تغسله إذا سمحت .. أريد رائحتك فيه .

قلت : هل ترتدينه في بيتك .

قالت : ربما أفعل .

قلت : إياك أن تخونيني فيه .

نظرت إليّ بعتاب ، كانت تصدق كل ما أقوله .. أتظاهر بأنني غاضب منها فتصدق أنني غاضب .. أسخر منها بحب فتعتقد أنني قد كففت عن حبها ، كانت قلقة في الأيام الأخيرة ، وكانت تشحب يا ربي وتفقد وزنها وتشف حتى ليرى المرء هذا الحنين الصامت المعذب الذي تختلج به أعماق روحها .. ولم أكن .. بغباء العاشق أدرك التحول الذي بدأ ..

لم أكن أصدق أو أحلم أو أتصور أن هناك من يستطيع انتزاعها من يدي والإلقاء بها بعيداً عني ..

لماذا يبدل الناس ثيابهم في الحداد .. لماذا يرتدون الثياب البيضاء أو السوداء .. لماذا ألقى الرسول عليه الصلاة والسلام بردته على كتفي كعب بن زهير حين عفا عنه . لماذا شفيت امرأة مريضة حين مسّت

طرف ثوب عيسى عليه السلام وهو يمشي . لماذا يلبس شيخ الصوفية مريديه خرقته الصوفية ..

لماذا أعطى يوسف قميصه لإخوته كي يلقوه على وجه أبيهم فيرتد بصيراً .. ولماذا أخذت هي القميص وذهبت بعد ذلك ..

أفهم الآن كل شيء بعد أن صار هذا الفهم بلا قيمة .

ساعتها لم أكن أفهم . لم أكن أدري انها سترحل . لم أكن أصدق ان قميص يوسف يمكن أن يعيد البصر إلى يعقوب الذي هده البكاء والحزن ..

أي ألم يا ربي .. كان يعقوب نبياً وكان الله يحبه ، ورغم ذلك تعذب يعقوب عذاباً أطفأ نور عينيه .. لماذا تركه الله يتعذب .. أستغفر الله الرحيم .. ألهذا الحد كنت تحبه يا رب .. ولهذا تركت المقادير تصهر ذاته في الحزن . لماذا يحزن الإنسان .. وما هي العلاقة بين الحزن والثياب وتطهير الروح .

....

سأل يعقوب أبناءه وكان صائماً : أين يوسف ؟

قالوا : أكله الذئب ونحن عنه غافلون .

وانحنى الرجل كالقوس وبكى ..

ومرت أيام .. وتساءل يعقوب :

ـ أين قميص يوسف الذي أكله الذئب وهو يرتديه ؟

وألقوا إليه بقميص ملطخ بالدم .. واحتضن يعقوب قميص ابنه الذي رحل .. وأعادت دموعه للدماء الجافة بريقها الحي .. وخيِّل إليه أنه يقرأ براءة الذئب في دم القميص . وقال له قلبه : ليس هذا دم

ابنك فلا تحزن .. وازداد بكاؤه فهو لا يعرف أين ذهب ابنه .. ومرت عشر سنوات .. وبلي القميص من كثرة بكاء الشيخ عليه .. وتأذى أبناؤه من حبه للغائب فأخفوا عنه القميص .. سرقوه ذات يوم وأنكروا انهم يعرفون أين اختفى .. وبقي الشيخ وحده .. كان يحتفظ بنور عينيه كي يرى بهما قميص يوسف ، فلما ذهب القميص ذهب نظر الشيخ . لم يعد يريد أن يرى .. لم تعد لديه رغبة في النظر إلى شيء ..

....

قال الشاذلي وهو يدعو ربه : «ألبسني التقوى منك» .

وسئل بولس الحواري عن التوبة فقال : «على من يتوب من البشر أن يلبس إنساناً جديداً .. بعد أن يخلع آدم القديم : وقال انجلوس سيلسيوس الصوفي المسيحي في القرن السابع عشر :

«من أراد دخول الجنة فعليه أن يلبس حريراً أبيض في روحه وبدنه .. على ألطف صورة ..» .

....

أذكر أنها كانت بيضاء من الداخل ..

ربما كانت قاسية قليلاً .. وربما كانت تتعكر أحياناً غير أن ما رأته من القسوة هو الذي علمها القسوة ، وما شهدته من التعكير هو الذي عكرها ، أما هي .. أما هي كما خلقها الله فلم تكن غير نور تناثر من قلب أعذب ما في الكون وأنقى ما فيه من نور .

رأيتها تلفّ القميص وتضعه في حقيبتها .. أخذت القميص الذي رأيتها أول مرة وأنا أرتديه ، ولم تعطني من ثيابها شيئاً .. أنا الذي أعطي فقط .. تعتقد الأساطير أنه إذا تبادل حبيبان ثيابهما كان ذلك دلالة

على أنهما قد تبادلا نفسيهما .. لكننا لم نتبادل الثياب .. نفسي هي التي ذهبت إليها ولم تقدم إليّ نفسها في المقابل .. لم نكن اثنين في حقيقة الأمر .. كنا واحداً هو «هي» .. لم يكن هناك غيرها .. وكان القميص قديماً ، وقد تهيأ أحد أزراره للوقوع .. وقد حذرتها منه .. وأشهد أنه لو كانت لي ساعتها أردية السماء بزينتها وألوانها .. لفرشت هذه الأردية تحت قدميها .. لم أكن مثل ييتس أملك أن أقدم إليها ألوان السماء كلها في رداء واحد .. على فقري المدقع لم أكن أملك سوى أحلامي .. وقد بسطت أحلامي تحت قدميها ، كي تسير عليها ، ولم أقل انها أحلامي كي تسير براحتها فوقها ..

....

المساء يبدل ثيابه ببطء .

ثوب الغروب الأحمر يفسح مكانه لثوب رمادي معتم . الثوب الرمادي يتحول إلى زرقة سوداء مع الوقت . ومع الوقت يضيع الثوب الأزرق تماماً ويبقى الأسود .

تبقى ملابس الحداد .

قميصها كان أسود . أكان أزرق أم أسود ..

يجب أن أتذكر ..

لو كان ممكناً أن يرى المرء خالقه لانتهى الأمر وذهب الحزن .. لكن الله تعالى يقول لموسى والإنسان : لن تراني ..

يعرف الحكماء من البشر أن الله لا يتجلى لعيون البشر .. إنما هو يحجب نفسه سبحانه برداء الكبرياء كما يقول الحديث .. وبرداء اللطف الذي يستتر تحته كما يقول الصوفية ..

لماذا يقول علماء الأساطير إن تبديل الثياب يحدث في حالات اليأس والموت . ما الذي يقصدونه بحالات اليأس . قطعاً يختلف ذلك عن الموت .. ما الذي يقصدونه باليأس . هل كانت يائسة قبل أن ترحل ..

لم أشعر بذلك .

كانت خطيئتي أنني معتم من الداخل ...

لو كنت مضيئاً ونقياً داخلي لاستطعت أن أتحدث مع القطط وأكلم النمل وأدردش مع هذا الحمار التعيس الذي يربطه صاحبه أمام بيتنا بالساعات ويحمله من أمره عسراً . أعرف أن هناك لغة من نوع ما تتفاهم بها الحيوانات فيما بينها .. وعندما يضرب الصياد أحد الظباء بطلق ناري ويسقط الظبي .. فإنه يصرخ صراخاً طويلاً يفتتت القلب .. ورغم أن الطلقة النارية لا تدعو لهذا الصراخ ، وإنما تدعو إلى نوع من الألم الذي يشبه الإغماء .. ورغم ان الظبي يعرف أنه لا يصرخ طلباً للنجدة ، على العكس ، إن صراخه يوجه الصياد إلى مكانه ، إنما يصرخ الظبي لأنه يريد أن يصرخ .. لأنه يريد أن يبكي ..

هل يبكي أيام الحرية التي صرعتها الطلقة النارية ، أم يبكي لأنه يتألم ألماً من نوع خاص .. نوع يحدثه فراق من نحب .

وكل حب يقترن في ذهن صاحبه بأنه اقتحام يزعزع الكيان كله ، وانه من نوعية خاصة ، وان أحداً من العالم لم يحب أحداً بهذه الكيفية . لماذا يصرخ الظبي حين يقع في الأسر ، وما معنى زئير الأسد أياماً متوالية حين يأسره الصياد ، حتى ليمتنع النوم على الغابة .. لماذا نطأ النمل ونحن نمشي بقسوة بالغة وعفوية فنحمل اليتم إلى زوج أو حبيب

أو أطفال من النمل .. لماذا يرافقنا الألم والهوى وينفجر في حياتنا اليومية المعتادة بغير نبوءة .

....

وينفجر إحساس يعقوب فجأة ..

نهض الشيخ المحزون الأعمى من عزلته وبدل ثيابه وخرج على زوجات أبنائه . وقف في فناء الدار ورفع رأسه إلى السماء وتشمم الهواء بقوة .. ثم استدار عائداً إلى غرفته .

قالت زوجة الابن الأكبر لزوجات الأبناء الآخرين :

ـ خرج أبو يوسف اليوم على غير عادته .. قلبي يحدثني بشيء .. هجر عزلته ووقف في الفناء . نظر إلى السماء وهو أعمى فكيف نظر إلى السماء ..

لا أعرف ولكنني أقسم أنني لمحت ظل ابتسامة في وجهه .

وتساءلت نساء الأبناء بالدهشة : تقولين ارتدى ثياباً جديدة .. وتقولين انه ابتسم ..

وتهرع النساء إليه . لا ظل لابتسامة في وجهه . أكان وهماً ما رأته المرأة .

سألته النسوة : بم تحس اليوم أيها الشيخ الجليل ؟

قال الشيخ : اني لأجد ريح يوسف ..

وزامت النسوة .. فأضاف : لولا أن تفندون .

وتنفضّ عنه زوجات الأبناء ويدور بينهن الهمس :

ـ لا أمل في الشيخ . سيهلكه البكاء على يوسف .

ـ هل تحدَّث عن قميصه ؟

ـ لا أعرف .... قال انه يجد ريحه .

ـ تتآكل ذاكرة الشيوخ مع الوقت وهذا على العكس .

ـ تزداد ذاكرته مضاء وحدة .

ـ لم يزل الحادث طرياً في ذهنه .

ـ تقولين انه بدل ثيابه .

ـ لعله جنّ .

ـ الجنون وحده هو الذي يبعث صور من نحب وروائحهم .

يومها طلب الشيخ كوباً من اللبن ، كان صائماً فأفطر عليه .. لأول مرة يطلب الطعام ولا يفرض عليه .

....

المساء يبدل ثيابه ببطء .

والقافلة تسير بقميص يوسف . كان القميص مخبأ في القمح . كان مختلطاً بندى الحقول ورائحة الأرض الطيبة وعطر يوسف ودفء الشمس التي أنضجت القمح .

وتقترب القافلة من قرية الشيخ .. والشيخ يدور في غرفته .. يصلي طويلاً ويرفع يديه للسماء ويعاود البكاء بينما القميص المندى بالشمس ورائحة يوسف في طريقه إليه .

متى يكون ذلك يا ربي ؟

متى يعود قميص يوسف .

معنى الحب

يذكرني الصوم بالحب . ويقودني الحب إلى التفكير في الله . ويذكرني رفق الله بنا وحبه لنا بالرفق الذي كان ينبغي أن نعامل به الحيوان ، والحب الذي كان ينبغي أن نعامل به رفاقنا من أفراد الجنس البشري ..

غير أن الجنس البشري هو الجنس الوحيد الغريب الذي يملك القدرة على الكراهية والحب والغباء والذكاء معاً .

أهو جنس هذا الذي ننتمي إليه . كل واحد منا قارة مجهولة تماماً ، وداخله أعماق لا تدري أبداً متى تنتهي .. كل إنسان منا بلا نهاية كالكون .. وكما قيل انه ليس هناك فراغ في الكون ، فكذلك الإنسان .. ليس فيه فراغ واحد .

وعندما يحس الإنسان بالفراغ فهذا معناه أن هناك خطأ ما في الحياة حوله .. خطأ في تركيب الحياة أو المجتمع أو النظام .

الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي صنع من الصلصال .. والصلصال هو الطين ، والطين يلتوي تحت ضغط الظروف ، وعندما يلتوي الطين يصبح منظره مضحكاً ومحزناً في نفس الوقت .

يتشابه أطفال الدنيا كلهم عند الولادة .. تكون لهم نفس الوجوه

البريئة والعيون الحلوة .. ثم يبدأ اختلافهم بعد شهور وسنوات من التغذية والتربية والصحة والرعاية والبؤس وظروف الحياة وشجار الوالدين وعراك الجيران والسموم التي تنفثها الحارة والعبط الذي يقوله الكبار والهراء الذي يصدر من البيئة في مجموعها .

هذا كله يجعل طفلاً يختلف عن طفل آخر في مكان آخر ..

وكذلك الأمر بالنسبة للرجل والمرأة .. حتى الفراخ والحمير .. هل تتصور أن حماراً في اليمن يكدح في حمل التراب ، يحمل نفسية حمار أمريكي مرفّه يشتغل في سيرك . قطعاً تختلف نفسية الحمار الأمريكي عن نفسية الحمار اليمني .

والناس كالحمير في كونهم صنعوا من الصلصال .. وأحياناً يقدم لنا التاريخ صوراً مأساوية مضحكة لناس ظلت الظروف تضغط عليهم حتى تحوّلوا إلى تحف ولم يعودوا ينتمون إلى الجنس البشري .

في قصة موسى وفرعون يحكي الله سبحانه وتعالى عن فرعون وعن موسى وهو يصف فرعون بالطغيان وغباء الكبرياء وجنون العظمة .. وهو يصف رعايا فرعون بأنهم بلا عقل .. « واستخف فرعون قومه .. فأطاعوه » .

إن الذل الذي وقع عليهم منه أفسد الصلصال الذي صنعوا منه .. وكان ما حدث أمراً طبيعياً بعد ذلك . .

في البداية استخف فرعون بقومه .. وفي النهاية أطاعه قومه .. تتساءل كيف حدث ذلك ولماذا حدث ، فيقدم إليك علماء التاريخ وعلماء النفس تفسيراً لما حدث .. إن كثرة ضغط على الإنسان تحوله إلى مسخ بلا عقل .. يفسد العقل الإنساني من الهراء الدائم الذي ينسكب

فيه من الحياة حوله ، وليس كالعقل الإنساني ورقة تصوير حساسة .. وما أسهل إفساد العقل الإنساني .. ساعتها تنظر في وجه الإنسان فيضج باطنك بضحك كالبكاء .. ترى الرجل طويلاً وعريضاً كفه كالرحى ورقبته كجذع الشجرة وفيه قوّة ألف حصان ، غير أنه لا يعرف ما يضره مما ينفعه ، ولا يريد إلا أن يأكل ويمارس وجوده على مستوى الحس وحده ، ولسوف تستطيع أن تمسك هذا الرجل بحبل من رقبته وتجره مثل أي دابة لا تعي ، لو استمررت في إفساد عقله .

وليس هناك غير حل واحد يقف أمام فساد الحياة وذلك حب الله .. إن في الحب عنصراً خاصاً للمقاومة .. الذين يحبون يقاومون عادة ، وعلى قدر درجة حبهم تجيء صلابة المقاومة .. هذا قانون من قوانين الكون .

يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » .

إن الله لا يخوّف الذين يرتدون عن دينهم ، بأن يلقيهم في النار ، أو يصب عليهم النحاس المصهور ، وإنما يخوفهم بالحب ، بأن يستبدل بهم قوماً يحبهم ويحبونه .. إن الارتداد عن الدين هو الشرك .. وليس في الوجود أقسى من فساد العقل ، والله يحارب الشرك بالحب .. بأرق ما في الوجود وهو الحب .

لم يقل الله لهم أنه سيستبدل بهم قوماً مؤمنين .. أو صالحين .. أو أتقياء .. ثمة مسافة بعد هذا كله .. هي مسافة المحبين .

وليس أمام الناس سبيل لو أرادوا طريق الله غير طريق الحب .

والطريق إلى الحب الإلهي يختلف من إنسان إلى آخر .. وهو يولد

في آلاف الصور ، ويأخذ ملايين الأشكال حين يكبر .

قد يقودك إلى الله أن ترى قطة تلد ، أو كتكوتاً يخرج من بيضته ، أو طفلاً صغيراً يرسم صورة من خياله ، أو عاشقاً يحب ، أو رجلاً يموت في ثلوج أرض لم يطأها قبله أحد لا لسبب إلا لأن هذه الأرض لم تكتشف بعد . قد يقودك إلى الله أن تشهد عالماً يجرب في جسده مصلاً جديداً بعد أن جربه في فئران المعمل .. أو ترى شاعراً يعكف على قصيدته شهوراً متصلة ، أو ترى كاتباً يمضي وراء ظاهرة في مجتمعه .. أيضاً يقودك إلى الله هذا التوق إلى تجميل الأرض وتركها أفضل مما وجدناها واقتحام الفضاء وغزوه لمجرد المعرفة العلمية البحت .

وأنت تعرف أنك على الطريق إلى الله إذا كان البؤس الإنساني يحزنك . إذا كنت تشعر بالعار عندما ترى أمامك بؤساً يبدو أنه ليس من صنعك ، وإذا كنت على استعداد للتضحية ببعض راحتك وصحتك ونقودك ودمك من أجل تقليل كمية البؤس في العالم .

عندما نصل إلى فهم دورنا كأبناء نتتمي للنوع الإنساني .. عندها يمكن أن نقطع الطريق إلى الله .. وهو طريق ذاتي وشخصي ويختلف من إنسان إلى آخر ..

وقد يقودك إلى الله شيء يقود غيرك إلى الجحيم . قد ينظر أحد الناس للأمراض والكوارث وآلام الأطفال وتعاسة الرجال وركود النساء وانتشار الشر وغباء العواطف وضيق الناس بالضيف .. قد ينظر أحد من الخلق لهذا كله فيراه ظلماً ، وربما نظر إليه غيره فرآه حبّاً ..

ترى الصوفية أن الإنسان يفرّ من الله إلى الله .. يهرب المخلوق من حكم خالقه . يتجه عكس دوران الكون . لكن الله يراه أينما اختفى

ويجده أينما يذهب في بطن الحوت كان أو في قلب الصحراء ، في بيته أم في مدينته . يجده الله دائماً ويتعقبه بوعده ووعيده وبلائه حتى يطيع ويسلم ويحب ثم يشتاق ..

يقول الصوفي العاشق ابن الفارض :

وما رد وجهـي عـن سبيلـك هـول ما
لقيت ولا ضـراء في ذاك مسـت
ومـا هـو إلا أن ظهـرت لناظـري
بأكمـل الأوصـاف عـلى الحسن أربت
فحليت لي البلـوى فخليـت بينهـا
وبينـي ، فكـانت منـك أجمل حليـة

تتحول البلوى إلى حلية . وتصبح الكارثة سلاماً . ويصير الألم نوعاً من أنواع الفرح .

لا يترك الله الإنسان كما اكتشف الصوفية ، إنما يتعقبه ويبغي صلاحه . ومهما يبلغ من عصيان الإنسان فمن العسير عليه أن يقاوم آيات الحب التي وضعها الله في الأرض .. وكانت إشارة إلى الحب الأعظم الخالق ..

يقول النفري أحد المتصوفين القدامى في العراق .. انه في أحد «المواقف» يسمع الله ببصيرته يخاطبه قائلاً :

«إستمع إلى لسان من ألسنة سطوتي ، إذا تعرفت إلى عبد فدفعني عدت كأني ذو حاجة إليه ، يفعل ذلك مني كرم سبقي فيما أنعمت ، ويفعل ذلك بخل نفسه بنفسه التي أملكها عليه ولا يملكها عليّ ، فإن دفعني عدت إليه ولا أزال أعود ، ولا يزال يدفعني عنه ، فيدفعني وهو

يراني أكرم الأكرمين وأعود إليه وأنا أراه أبخل الأبخلين» .

سبحانك يا رب ..

هذا هو حال الإنسان الذي يريد الفرار من قدر الله أو قدرته .

أي لطف يا ربي وأي حب .

هذه مستويات حب لا يبلغها من البشر أحد .. غير أن هناك طريقاً إليها رغم ذلك هو طريق الحب البشري ، وهو طريق يعرفه الصوفية كما يعرفه آحاد الناس ..

يقول ابن عربي : إن المحبوب واحد ، وإن تعددت صوَره . وان الله هو المحبوب الواحد على الإطلاق ، وأساس العبادة وجوهرها هو الحب وإذن فالله هو المعبود الوحيد ، وكل الصور الجميلة في الوجود صفحات تشير إلى جماله ، وإذن فالله هو الجميل على الإطلاق .

غير أن الجمال البشري انعكاس للجمال الإلهي وكذلك كانت «النظام» . هذا اسم حبيبة الصوفي الأكبر ابن عربي .. كان اسمها «النظام» وهي ابنة الشيخ مكين الدين بن رستم المقيم بمكة .

عشقها الشيخ الأكبر وهام بها ، وكتب من أجلها ترجمان الأشواق . وهو أثر من أعظم الآثار الأدبية والصوفية في العالم .

ويعترف الشيخ الأكبر بحبه للنظام .. ويكتب فيها الشعر .. ويتغنى بمحاسنها وينفذ من خلال شفافيتها إلى نور الأنوار الحق سبحانه .

يقول المؤرخون انه لم يرها غير مرة أو مرتين ، وكانت تصحبها عمتها العجوز التي كان يستمع إلى أدبها وحديثها ، أو يراها بصحبة أبيها الشيخ مكين الدين الذي كان يحضر مجالسه .. وهذا كله طبعاً ظن يقوم في أذهان المؤرخين .. أيمكن لعقلية جبارة مثل عقلية ابن عربي ،

أن تعشق امرأة لم يرها غير مرتين عابرتين .. أغلب الظن أنه رآها بصحبة عمتها المسنّة ، وتكلم معها ، ثم عرفها أكثر فأحبها ، ولم يكن له زاد غير أن يراها ويجلس إليها ويحدثها .. أحسبه قد عرفها أكثر مما عرف أي عاشق معشوقته ، وأحسبه قد نفذ إلى أعماق روحها ، وأحسبه قد تزوجها سراً زواجاً يعود بهما إلى عالم الذر الذي أخرج الله تعالى فيه أرواح بني آدم من ظهر آدم وأشهدهم على نفسهم : ألست بربكم قالوا بلى .

أظن أن ابن عربي قد عرفها من هذا اليوم .. من يوم أخذ العهد إلى أن التقيا لقاء عابراً مع عمتها أو والدها وهي تحضر درساً من دروسه في مكة .

وأتصور أن الشيخ الأكبر لم يكد يراها حتى تذكر يوم العهد .. وجرى ذهنه لهذه الرائحة النقية العطرة التي تشبه رائحة الأيام الأولى في الخلق .

أحب الشيخ الأكبر ابن عربي .. وعبّر عن رعشة الحب في نفسه ، وصوَّر ما يحسه من وجد على من يحب ، وهو لا ينكر أنه يحب .. ولا ينكر أنه يحب النظام ، بل انه ليدخل اسمها في شعره بإيراده على شكل صفة من الصفات كمن يحب امرأة تسمى نور فيقول للشمس أو لصاحبه أن الدنيا نور كي يذكرها مجرد ذكر .

أحب ابن عربي إذن ، وأحرق الحب قلبه ، وكانت معشوقته امرأة مكتملة ولكنه رآها طفلة . هذه الطفلة ذات الأجفان الخجلة الثقيلة التي تشبه الأجفان المريضة .. هي نفسها المسؤولة عن مرضه هو ..

مرضي من مريضة الأجفان   عللاني بذكرها عللاني

هفت الورق بالرياض وناحـت شجو هـذا الحمام مما شجاني

وهو يفرد أشرعته في بحار الحب فيسقط منه عمر حبيبته في البحر . ويراها مجرد طفلة تحتاج لأب .. يراها طفلة ذات نثر .. طفلة تعرف كيف تتحدث .. طفلة ذات نظام ، أي طفلة اسمها النظام :

طـال شوقي لطفلـة ذات نثر ونظـام ومنـبر وبيـان

لـو ترانا بـرامة نتعاطـى أكـؤساً للهـوى بغير بنـان

والهـوى بيننا يسوق حـديثاً طيبـاً مطـرباً بغـير لسان

وهو يتقدم أكثر في بحار الحب فيصل إلى منطقة غريقة فيها .. لقد مات لها أحد .. وها هو يصور لها ما يجتاحه من أسف وحزن وما يضطر إليه من بكاء .. لقد مات وحيدها .. من هو وحيدها . هل كان لها ابن ومات ، هل كانت متزوجة ومات زوجها . هل كانت مطلقة وابنها عند زوجها الذي أهمله فمات .. لا أحد يعرف .

ويستمر ابن عربي فيصف لنا ما يتعاقب على نفسه من أحـوال الحب ، وأهوال الشوق ، ويشير إلى أن العواذل لم يلوموه ولكنهم قد يفعلون ، ويشير إلى أن الناس لا تتحدث ، ولكنها يمكن أن تتحدث ..

ويقول لنا ، إنه لا ينوي أن يرد على كلام الناس والعواذل بغير الشهيق والبكاء ...

ولـو لامـني في هـواها عذولي لكـان جـوابي إليه شهيقي

فشوقي ركـابي وحـزني لباسي ووجدي صبوحي ودمعي غبوقي

....

وصل الشيخ الأكبر إلى نفس الحالة التي وصلت إليها بعد أن رحلت نور . إنه يستيقظ على الوجد والألم ، وينام وغصة الدمع في قلبه لم تنم .

إن ابن عربي يمر هنا بمرحلة من أخطر مراحله كعاشق .. إنه يصل في حبه البشري إلى طريق مسدود .. عرف الناس جميعاً أنه يحب ، دل عليه حاله من الشحوب والنحول ، وبدأوا يراقبونه ..

وقال يوماً في رموزه الغامضة «إذا حضر الرقيب ، فخاطب الرقيب بلسان الحبيب ، يسمعك الحبيب . ويفهم لسانك» .

....

أكانت عمتها تجلس معها يا سيدي ساعتها ..

لا أحد يعرف ..

....

كانت هذه درجة من درجات الحب ، ثم راح ابن عربي يقتحم روح حبيبته ويمشي في الكون العريض العميق الذي تملكه روحها حتى اكتشف أنه قد تاه . كيف يمكن لامرأة أن تقود رجلاً عظيماً إلى الله . أهو حسنها فقط .. أم عقلها وحده ، أم قدرتها على الأمومة ، أم قدرتها على إيقاظ الإنسان الذي يجهل المحب وجوده في نفسه . الإنسان الذي يقدم شيئاً إلى الحياة .

ربما تكون «النظام» هذا كله .. قطعاً كانت ولولا ذاك ما أحبها ابن عربي ، وربما تكون فتاة عادية وانطبقت عليهما قوانين التوافق .

لم يزل السؤال معلّقاً .. كيف يمكن أن تقود امرأة رجلاً إلى الله .. أي بساطة تنطوي عليها الإجابة .. .

هناك منحنى بالنسبة للعواطف الإنسانية .. تظل العواطف تغوص في الألم ، وتصعد إلى الفرح ، ثم يصهرها الألم والفرح ، ثم ترتد فجأة إلى الحياد .

من رحمة الله أن خلق شيئاً يشبه القانون حتى بالنسبة إلى الروح ، ثمة أنواع من الألم التي تسلمك إلى الذهول ، وهناك نوع عذب من الألم يسلمك إلى التوتر .. آلام الموت تسلم إلى الذهول .. يفرغ ذهنك فجأة وتقف فاغر الروح أمام الموت ، ويستيقظ قلقك في الحب وتقف مندهشاً أمام آلامه وتزيد الأسئلة عليك ، ويحاصرك اليأس ممن تحب ، وتزيد الأسئلة عليك . لن يجيبك عن هذه الأسئلة غير الله . ويذهب إلى الله يسأله عنها باعتباره الوحيد الذي يعرف حقيقتها .. أليس خالقها . ويسأله عما يلح على ذهنه من أسئلة باعتباره خالق الأسئلة والأجوبة .

وخلال بحثه عن الصورة يهديه الله إلى الأصل . ويعشق ابن عربي عشقه الكبير . ينسى الصورة أمام الأصل . يذهب عقله أمام الأصل .

أوراق نور

ـ ألم تصل رسالة ..

هذه أول كلماتك حين تصل إلى عملك .

لم تصل رسالة يا سيدي .. هل تنتظر خطاباً من أحد .

سوف تستدير وتمضي ، سيضحك الناس من وراء ظهرك ... أنت محاصر من الداخل بآلاف الأسئلة .. تنضم المخاوف إلى الحصار . تنتظر رسالة ممن تعرف أنها ذهبت . لعلك مجنون . من يدري . لكنك صلب وعاقل والناس لا تعرف ماذا يحدث لك ، خبئ مشاعرك تماماً وراء صفحة وجهك .. تكتشف فجأة .. تستيقظ ذات صباح من نومك فتكتشف فجأة أنك خائف . لا تعرف لماذا أنت خائف . بل تعرف ولا داعي للإنكار .. رأيت كل شيء في الحلم ليلة أمس ..

لم تمت حبيبتك وإنما هي موجودة وتخونك .

نحن الآن في أوقيانوس الخيانـة .. والظلام كثيف ومعتم ، وحولك آلاف من الأمواج والقواقع . فمك مليء بملح الصدق القديم الميت . أليس الأوقيانوس بحر الظلمات .. كل شيء مظلم فاستمع . لم تمت حبيبتك وإنما هي موجودة وتخونك .. لماذا تصر أنها ماتت .. تدافع عنها لهذا الحد وتحبها لهذا الحد .. يا للمخلوق المخدوع .. بل دخل

حياتها رجل آخر .. أحبت أحداً أكثر مما تحبك . ابنتها أو نفسها أو ابنها أو قطتها أو أي مخلوق آخر أكثر منك .

كان لها ابن ومات . لا تقاطعني ودعني أكتب . مات حبها لك في طوفان الحزن الذي اكتسحها بعد موته . تقول إن هذه هي قصة حب ابن عربي .. تريد نهاية حديثه .. لم تزل تقاطعني وهذا سيئ .. أنا المؤلف .. أنا خالقك ، وأستطيع أن أكتب سطرين فتموت ، أو أكتب كلمة واحدة فتنتهي .. أقول مات فتموت .. لست رحيماً مثل الله لأعطيك كل ما تطلبه .. أنا بشر ولديّ مشاكلي الخاصة وديوني . اصمت تماماً ودعني أكتب .. هذا آخر تحذير أوجهه إليك .. لم تعد هي تحبك .. أي ظلم في الحب . الحب ظالم ولا منطق لديه غير منطق الجنون . نزولاً على دموعك الصامتة التي تحاذر أن تصل إلى سمعي سأبحث لك عن نهاية ثانية .. سنتصور شيئاً آخر .. نتصور شفتيها وشعرها وقابيل يمضي بيديه فوقهما .. قابيل الجد الأكبر .. حمداً لله . تذكرنا اسمك الآن . اسمك هابيل . أليس اسمك هابيل .. قتلك قابيل .. ألم يقتلك .. ما أغرب صور القتل التي يمكن أن ترد في حياة البشر .. لقد قتلك قابيل بفك حمار أو بسلاح ذري أو بتصرف رديء أو بكلمة وشاية .. المهم أن قابيل بعد أن قتلك راح يحتضن الأنثى التي كنت تحبها .. أنت ميت تنظر بعيون الموت الزجاجية فترى كل ما يحدث ..

استيقظ من موتك . عادت نور .

عليك أن تسير على أطراف قدميك . أنت الآن شهريار . أنت في الطريق إلى المرأة التي تحبها . ينفذ شهريار في الباب كحفنة من الهواء

فيرى حبيبته تلهو مع عبد أسود . ويقبض شهريار على قلبه بيده .

أنت شهريار الذي اتخذ محل إقامته القرن العشرين .

شهريار القديم مدَّ يده إلى السيف وأطاح برأسها ورأسه . لكنك شهريار حديث .

شهريار متمدن . وليس معك سيف ، ولا تستطيع قتلها وهي بعيدة عنك ولا تطولها يداك . ولو طالتها يداك فلن تقتلها لأنك تحبها .

أرأيت كم أنت خائب .

ويصرخ الحاجب لك .

ـ سيدي شهريار المودرن . أُعدّت مائدة الجنون فتفضل إلى الغداء . هل نتركك تجن يا سيدي . هل تستطيع احتمال آلام الجنون . لاحظ أن جنونك من نوع خاص ولا شفاء منه . في الجنون المطلق يذهب العقل فلا تعرف من أنت ولا من تكون ، وفي حالتك ينحصر ذهنك في شيء واحد . أنت شهريار الذي يستل ابتسامته بدلاً من سيفه . وأنت هابيل القتيل الذي وقف القاتل يقبل امرأته وهو لا يعرف كيف يواري جثة أخيه .

ولأن الله لم يزل يحبّك . ولأن الله لا يريد لك الجنون . ولأنك تبكي دون أن تعرف السبب في بكائك ، وتخفي عن الناس أنك تبكي ، ثم تخفي عن نفسك أنك تبكي ، حتى لتبكي بعد ذلك دون أن تدري أنك تبكي . لأنك رجل متكبر يا سيدي فأنت تحاول أن تبدأ في إنتاج الفن . تنحت تمثالاً أو تؤلف كتاباً أو تكشف زهرة أو تنضم لجماعة تحارب لقضية نبيلة ومحفوفة بالمخاطر ، مثل فتح ، ما رأيك في فتح .. هيه .. تسألني لماذا ذهبنا إلى الله .. نحن مضطرون

أن نذهب إلى الله .. صحيح أنني خلقتك على الورق ، ولكن مشكلتك السوداء التي أوقعتنا فيها هي التي اضطرتنا إلى الذهاب إلى الله . صنعتك ولا أعرف كيف أحل مشكلتك . هل رأيت المأزق . كان يجب أن تخجل من نفسك .. ما رأيك في فتح . لا تريد أن تموت معهم . ضاعت فرصتك في ميتة نبيلة أيها الأحمق .. ستموت على فراشك كما يموت البعير .

اصمت ولا تعد تقاطعني . أنت تسير في طريق الفن .. تقول ان جنونك يزداد بدل أن يهدأ ..

بلاش أكتب أنا .. تفضل أنت .. تفضل خذ مكاني .

....

قال لي : انت تخلق مخلوقاتك وتتحكم فيها وتسيرها . تمنحها النقاء حين تقرر لها النقاء ، وتضعها في ظروف الإثم . أنت لا تترك لمخلوقاتك الحرية . وهذه البنت الروائية التي صنعتها تحب هذا البطل لأنك أردتها أن تحبه . وضعتها في ظروف دفعتها لحبه .. ولن تعرف أبداً كمؤلف هل كانت تحبه أم لا .. إنها ليست مخلوقة حقيقية .. لم يخلقها الله .. إنني أكفر بك أيها المؤلف .

أما أنا ، فصحيح أنك صنعتني .. لكنني أحببت نور .. وأنا أكفر بك الآن .. سأذهب وحدي إلى الله ..

نظرت إليه فصمت .. عدت إلى الكتابة .

....

ـ سأفترض أنك تعرف أنها كانت تحبك .. كان فعل ماض ذهب لحال سبيله .. لقد خانتك مع أول عبد مظلم . هل أرسلت إليك

الرسالة التي تنتظرها قط . هيه .. يا صديقي انها لم تبعث إليك لأنها لا تعرف ماذا تقول ، وهي تدرك ذكاءك .. ألست ذكياً .. وهي تعرف أنك ستكتشف كل شيء .. وإذن ليس أمامك غير تجارب الفن أو تجارب الحياة .. أرجوك .. لا تتحدث أبداً ، هذا أمر نهائي .. تزيدك تجارب الفن جنوناً وتزيدك تجارب الحياة يأساً ... لا بأس .. يجب أن تحتمل .

ألا تريد أبداً أن تكبر أيها الطفل عديم الإرادة .

لا تبك بهذه الحرقة . جفف دموعك واصلب قامتك وادهن وجهك بلون الأحلام وادهن قلبك باللون الأسود وتحوّل إلى عبد مظلم وحطم أحلام شهريار ونقاءه وتصوره الساذج عن الحياة .. تستطيع أن تفعل ذلك ببساطة . أمامك ألف امرأة وامرأة ، وألف ليلة وليلة . تقول انك لا تريد ..

لا تريد أي امرأة . سئمت من النساء مثل شهريار . ولم تعد تريد أن تلعب دور العبد القميء . ماذا تريد إذن ...

إياك أن تقول لي نور ..

لا تعرف ماذا تريد ...

أيها الآدمي الأحمق .. ألا تعرف أن الله يحبك أكثر مما تحب نفسك ولهذا يوجهك إليه .

قلت لي أنك تكفر بي وأنا الذي صنعتك . يظهر أن الجحود هو شيمة المخلوقات . تفضل يا سيدي واتركني واذهب إلى الله ..

أمامك ألف معجزة ..

تسألني أي معجزة .. عصفور يلتقط حبة أرز ويطير مسافة ليطعم

أحد أبنائه .. قطة تلحس ابنتها وتحميها وتنظفها .. طفل يولد .. نسر ينقض من الجو على فريسته .. نبات ينمو من طين الحقول الغليظ ويشق سطح التربة الثقيل .... كتكوت يخرج من بيضته مغمض العينين لا يرى ولكنه يتجه مباشرة إلى الأرض باحثاً بمنقاره عن .. عن ماذا ؟ عن شيء يأكله .. حبة أرز مثلاً .. الله .. من الذي قال له ان في الأرض شيئاً تأكله .. إنه لم ير الأرض بعد . لم يفتح عينيه بعد .. لا بد أن الله هو الذي ألهمه كما ألهم حوت يونس أن يبتلع ذا النون .

وإذن .. لماذا لا تذهب إلى الله .. لو ذهبت إلى الله تطلب منه « نور » فربما أجابك لما تطلبه .. ماذا ستقول لله .. فكِّر قبل أن تدعو .

ستقول له : يا رب .. أريد أن أعيش معها وأريد أن أغسلها بالعطر وأجففها بالنور ، وأريد أن أدللها وأفسدها وأطعمها وأحميها وأكرر صورتها في آلاف الأطفال . أريد أن أستلقي جوارها فوق كل مدينة في الأرض . أريد أن أحتويها فوق كل البحار ، وداخل كل المغارات . وعلى كل الشواطئ .. وتهب كل بقعة من الأرض طفلاً .. وأريد أن أموت وهي جواري .

عظيم جداً ..

أليست هذه كل طلباتك .. أنت تريدها باختصار .. عظيم .. استمع إذن لما يقوله الله ..

ماذا قال الله .. ألم تسمع .. ألا تعرف أن لله كلمات كثيرة .. وأنه « لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » .

كيف لم تسمع ما قاله الله رداً على دعوتك .

لقد تحدث الله سبحانه وتعالى إليك . كان يحدثك أنت وحدك ورغم ذلك لم تسمعه .. هذا ذنبك وليس ذنبنا . أنت معتم من الداخل ولهذا لم تسمع . لم تصلك الرسالة . لم تلتقط الرسالة ..

هل تحاول مرة أخرى أن تسمع ما قاله الله .. تريد أن تعرف جواب الخالق على دعوتك . الطريق إلى أن تسمع الخالق أن ترتدي قميص يونس الذي كان يرتديه في جوف الحوت . القميص يباع في حدائق الندم التي دخلتها قبل ذلك . حدائق أخرى غيرها . لكي تسمع الله يجب أن ترتدي هذا القميص .. لقد كنت تتعطر من أجلها وترتدي أفضل ثيابك وتحلق ذقنك وتمشط شعرك وتملؤه بالعطور والدهون . وكنت تتأمل نفسك في المرآة آلاف المرات كان هذا كله من أجلها .. هل تستكثر على الله كي تسمعه أن ترتدي له رداء يونس أو رداء التوبة . أو رداء التقوى .. هل ارتديت قميص يونس .. تعال من مقام التوبة إلى مقام الخوف . كيف لم تسمع الله . دع مقام الخوف إلى مقام الرجاء. توسل إلى الله أن يرق قلبك فتسمع الله . تحرك من مقام الرجاء إلى مقام الصالحين. لا .. لم تصبح صالحاً بعد . إنما أنت تحب الصالحين. والمرء يحشر مع من أحب .. انتقل من مقام الصالحين إلى مقام المريدين . تريد كلمات الله .. امش من مقام المريدين إلى مقام المطيعين .. هيه .. أين أنت الآن ، انتهى الأمر وصرت طائعاً لله .. اسبح من مقام المطيعين إلى مقام المحبين . تقول انك في مقام المحبين . سيجيئك جواب الله على دعوتك هنا .

في اللحظة التي تكتشف فيها أنك تحب الله حقاً . يدين لك كل شيء بالخضوع . تنكشف لك حقائق الأشياء . لم تعد هابيل الذي

قتل . أنت المسيح الذي رفع إلى السماء بغير أن يمسه أحد . لم تعد شهريار الذي يجري وراء رائحة الدم لأن امرأة خانته مع عبد أسود . أبداً يا صديقي .. ينفتح لك الباب فترى مثل شهريار ما رآه فتبتسم إشفاقاً وتقول : لو أحسن الناس معاملة هذه الفتاة ما فعلت ما تفعله .. الناس قساة وهي مخلوقة من الصلصال ، وفي الصلصال كل الضعف البشري . ونحن لا نرحم أحداً ولهذا لا يرحمنا الله .

ـ نور .. إنني أغفر لك كل شيء . وأريدك رغم كل شيء .

وتحس داخلك بالرحمة تجاه كل الصلصال البشري البائس . ويحدثك الله فتسمع . ويقول لك : سلني ما تريده . وتقول في صوت هامس .

ـ يا رب .. أنت وحدك تعرف يا رب انني تزوجتها مرتين .. (هذه حقيقة يجهلها المؤلف) . تزوجتها مرة أمامك قبل أن تخلقها حين كنا في عالم الذرّ في ظهر آدم .. ولم ألمسها هذه المرة .

وتزوجتها مرة ثانية بعد أن ذهبت ولم ألمسها هذه المرة أيضاً لأنها ذهبت ...

تعرف القصة كاملة يا ربي ، ولو شئت أن أحكيها لك فسوف أفعل .. أحب أن أحكيها ..

يتدخل صوت في الحوار .

صوت جديد لا نعرف من أين جاء .. يقول الصوت الغريب :

ـ نور أمامك الآن ..

وتترك الله وتستدير سائلاً :

ـ أين هي ..

وتراها أمامك فجأة .. بعثت من الموت فجأة . وتسرع نحوها وأنت تفتح ذراعيك تريد أن تطقطق لها ظهرها كما كنت تفعل في كل مرة تقبلها فيها .. لكنك لا تصل إليها .. يعترض طريقك نفس الصوت الغريب .

ـ إلى أين تذهب ..

ـ إلى نور ..

ـ قلت انك ذاهب إلى الله ..

ـ أهناك تعارض ..

ـ قلت انك ذاهب إلى الله .. هل تأخذها معك ..

ـ نعم ..

ـ الطريق وعر وشاق ويمتلئ بقطع الزجاج المكسور .. وأنت تحب قدميها .. هل تريد أن تتمزق أصابع قدميها التي تحبها .

ـ لا أريد .

ـ كيف ستأخذها إذن ..

ـ سأحولها إلى إنسان عين وأضعها بدل إنسان عيني وأغلق عليها جفني وأمضي في رحلتي سعياً إلى الله .

ويضحك الصوت الغريب .. يضحك طويلاً حتى يدهمك الخوف. وتتلفت جوارك فإذا بمخلوقات عديدة تملأ الفراغ فجأة .

ويقول الصوت الغريب : ألم أقل لكم إنه جـاء في طلبها ولم يأت في طلب الله . ونسمع صوتاً مهيباً وهادئاً يتساءل .

ـ من الذي يتحدث عن الحب البشري فيمقام الحب الإلهي ..

ويشيرون إليك .. ويصدر الحكم ..

لم تكن جاداً في طلب الله أيها الفاني . انزلوه كما كان . أعيدوه إلى الأرض .. إلى حجمه الطبيعي .. إلى مقام الخطيئة والهوى البشري .. حيث ذهب هواه ولم يرتكب خطيئته .. دعوه يحترق بالثلج والنار وحده .

وتهوي يا صديقي من مقام المحبين إلى مقام الطائعين إلى مقام المريدين إلى مقام الصالحين إلى مقام الرجاء إلى مقام الخوف إلى مقام التوبة إلى مقام الخطيئة ..

عدت كما بدأت . أثبت ان الأرض كروية والخطيئة كروية وعليك أن تدور عكس دوران الأرض فتصور بؤسك .

هل تريد أن تبدأ من جديد . آه ...

تعود إلى مؤلفك بعد أن كفرت به آه .. وتذهب إلى الله فلا تصل إليه .. آه .. كيف أحل مشكلتك إذا كنت لم تحلها مع الله .. هيه ..

هل تريد أن تبدأ من جديد . ليست لي علاقة بك . لا تحدثني في ذلك . لقد تمردت عليّ وكفرت بي وذهبت إلى الله وعدت إليّ حين لم تنجح .. اصمت تماماً وانصرف . افعل ما تريده بعيداً عني ..

إذهب ..

....

ذهب يجري إلى شيخه الصوفي . قطع بحاراً وجبالاً وودياناً وطرقاً برية وسككاً حديدية وعبر إلى قرى نائمة واجتاز سهولاً ولم يتوقف .. وصل إلى صومعة الشيخ في جبال أسوان .. باب الصومعة مفتوح على غير عادته . انقبض قلبه وأحس بذلك .. دخل إلى الصومعة .. سجادة صلاة الشيخ لم تزل دافئة مثل رمال الصحراء . حمداً لله . خرج الشيخ

وعما قليل يعود . فوجئ برجل يخرج من غرفة نوم الشيخ . ترك الرجل الباب مفتوحاً . لم يكن الشيخ هناك .

سأله الرجل ..

ـ أي شيء تريده ..

قال : أريد الشيخ .. من أنت ..

قال الرجل الغريب : أنا سمير الشيخ وصفيه . ذهب شيخك ..

تساءل والخوف يعصر قلبه : أين ذهب الشيخ . لا تقل لي انه مات .

قال سمير الشيخ وصفيه : أغلب الظن أنه مات . توضأ قبل أن يمشي وحمل كفنه معه وخرج يخلص الناس من ذئاب الجبل ..

سقط على ركبته وتساءل : لم يعد شيخي إذن .. أين كفنه .. أقصد أين قبره ...

قال سمير الشيخ : لا نعرف شيئاً عن مكانه .. حملت الريح جزءاً من قميصه الملطخ بالدم ، تحب أن أريك القميص ..

انكفأ على التراب وأنشب أسنانه فيه ...

عوى وهو ينشج .. ودخل التراب في عينه وفمه وأنفه وهو يقبله ..

وخيل إليه وهو يقبض على التراب بعينيه ويقبله أنه يقبّل حفنة من تراب جاء من المدينة ، حفنة تراب سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ...

غسلت امرأة أقدام المسيح بدمعها ويغسل هو تراباً سار عليه نبيه ثم حملته الريح إلى أسوان .. رأت المجدلية الخاطئة المسيح وحدثته ولم نر نحن النبي ولا زرنا قبره .. أي بؤس ...

وعاد ينشب أسنانه في التراب ..

الحوار الأخير

تركني سمير الشيخ وصفيّه أبكي وخرج ..

غادر الصومعة وتركني منكباً على الأرض ،لا أدري كم من الوقت لبثت راقداً هكذا ، ظللت أبكي وأنشج حتى هدني البكاء فنمت ، رأيت فيما يرى النائم شيخي الصوفي ونور وهما يسيران وسط خلاء عظيم .. كانا يتحدثان معاً . هو يسير قبلها ، وهي تمشي متأخرة عنه احتراماً ، وحاولت أن أعرف فيما يتحدثان فلم أعرف ، اقتربت منهما وحاولت أن أتنصت .. كانا يحركان شفاههما بغير أن يصدر عنهما أي صوت .

قلت لنفسي ألاحظ حركات الشفاه لعلي أفهم ، خيّل إليّ أنها تسأله : لماذا أعادوه إلى التراب .. ألم يكن في مقام المحبين ؟

استدار الشيخ وقطب وجهه ورفع إصبعه في وجهها مهدداً وخيل إليّ أنه قال : أنت السبب في عدم ذهابه أصلاً .. أنظري إليه وهو نائم على الأرض . لم يصل بسببك أبداً إلى مقام المحبين .

تساءلت نور : أكان يحبني حقاً .

قال الشيخ : كان يحبك وحدك وتلك خطيئته .

قالت نور : لماذا أعادوه إذن .

أجابها الشيخ : قلت لك انه لم يذهب ، هتف الشيطان باسمك وهو

يتوهم أنه يتجه إلى الله ، فاستدار يسأل عنك وترك خالقه .

قالت نور وهي ترتعش : فعل هذا من أجلي ..

قال الشيخ ووجهه يظلم : أنت سعيدة لما حدث .. انظري إلى بؤسه .

قالت نور وهي تبكي : ظننت أنه لا يحبني .. تصورت انه يلعب بعواطفي .

قال الشيخ وهو يقطب وجهه : هل أنت واثقة أنه لم يكن يعبدك .

قالت نور : لم يقلها لي بوضوح .. كان يقول لي قبلها دائماً أستغفر الله .. يخيّل إليّ انني أعبدك ..

قال الشيخ : فهمت الآن سر تعاسته ، كان يعبدك حقاً ، ولهذا كان يستغفر الله ، كان جاداً في عبادتك ، لم يكن هناك فارق بينه وبين من يعبدون الشمس ولهذا السبب لم تحبيه أنت ..

قالت نور وهي تزداد ارتعاشاً ودهشة : كيف تقول كان يعبدني ولهذا لم أحبه .

قال الشيخ : أخفى الله هذا الناموس عن العشاق في الأرض ، في اللحظة التي يحب فيها العاشق غير الله ، في اللحظة التي يهب العاشق قلبه لغير الله ، يضيع منه ما صرف جهده إليه ، وينقلب عليه من ترك الله بسببه ، أخفى الله هذا القانون لحكمة ، لو كان هذا الآدمي التعس يعبد الله وحده لصرت يا نور أطوع له من قميصه .

قالت نور شيئاً لم أسمعه للشيخ ، ورد الشيخ بشيء لم أتبينه ، ثم ثار غبار هائل واختفت نور واختفى الشيخ . وظللت أحدق في الخلاء الغامض الصامت .

....

استيقظت من النوم ساعة الغروب ..

تأملت الشمس وهي تذهب ، مسحت التراب عن وجهي وجلست على الأرض ، كان سمير الشيخ وصفيه قد عاد من الخارج ، مد الشاب العابد يده إلي بكوب من الشاي وكسرة من الخبز .

قال لي : كل واشرب .

قلت : أنا صائم .. اليوم هو اليوم الثلاثين من شهر رمضان .

قال : غربت الشمس وتستطيع أن تأكل .

قلت : صائم بسبب غروب الشمس .

قال : يجب أن تكف عن عبادة الشمس ، ألم تفهم مما رأيت في الحلم شيئاً .

صعقتني كلمته فقلت : كيف عرفت حلماً رأيته وحدي ؟

قال وهو يبتسم : ألم يكن شيخي هو الذي زارك .

قلت له : أكنت معه ؟

قال : لا .. بل حدثني أنه زارك .. كيف حالك الآن ؟

قلت : أريد أن أموت .

قال : لكنك استيقظت من النوم منذ دقائق . تريد أن تنام مرة ثانية .

قلت : بل أريد أن أموت .

قال : أمامك عمل شاق وأنت لم تبدأ بعد .. هل تحبها لهذا الحد .

أدهشني سؤاله المفاجئ .. سألته بحدة : لماذا تحاول إقناعي أنك تعرف كل شيء .. هل يبدو وجهي صفحة مقروءة ؟

قال وهو يبتسم : قلبك هو المقروء لا وجهك .. والمؤمن ينظر بنور الله .

قلت له يائساً : ذهبت هي ، وذهب الشيخ ، وذهب شهر رمضان ، ما الذي بقي لي في الدنيا !؟

قال بهدوء : بقي لك الله .

تذكرت الحلم الذي زارني فيه شيخي وألقى إليّ بكتاب منها .

قال سمير الشيخ وصفيه : لماذا لا تعود إلى الله كما حدثتك هي في الحلم .

قلت : من الذي أخبرك ..

قال : دعك من أسلوب الأسئلة .. قل لي .. ألا زلت لا تفهم مغزى ما حدث .

قلت .. وقد بدأت أحس بانجذاب إليه : لا لست أفهم مغزى ما حدث .. أهناك معنى لما حدث .. إسمع قبل أن أنسى .. أين قبر شيخي الصوفي لأدفن معه .. كان المفروض أن نزور القبر معاً في أسوان .. لو حدث هذا لعرفت أين أدفن نفسي ..

قال : لم تزل محموماً ومريضاً .. ماذا ستفعل ..

قلت : أريد أن أعود إلى الله .

قال : ماذا يمنعك أن تعود إلى الله .

قلت : الخجل والحزن .

قال : حزين لأنك تعود إلى الله .

قلت : أقصد بهذه الكيفية .. لم أكن أريد أن أعود إلى الله هكذا .. كنت أريد أن تقف معي نور .. ثم أقول لها اذهبي فأنا لا أريدك لأنني أريد الله .. بعدها أتجه إلى الله .

انفجر الشاب العابد يضحك فجأة .. راح يضحك حتى وقع على

الأرض .. ضاع وقاره كله .. قال وهو يقاوم ضحكه : أنت سيئ الأدب حقاً كما حدثني شيخي الصوفي عنك .. تريد أن ترسم بنفسك الطريقة التي تعود بها إلى الله .. تريد أن تحدد بنفسك أسلوب عودتك إلى الله .. ما أعظم جرأتك .. ماذا قال آدم لله حين أخرجه من الجنة ؟

قلت : قال « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

قال : طبقاً لأسلوبك .. لو أنك أنت آدم .. لو كان آدم بنفسيتك هذه الرديئة الجاهلة لقال : « يا رب لماذا أنزلتني من الجنة إلى الأرض رغم أنك قدرت في علمك القديم أن ما وقع كان لا بد أن يقع ..

يا رب .. أريد أن أنزل إلى الأرض بكرامتي .. لا أريد أن أخطئ وآكل من الشجرة . أريد وسيلة أخرى للنزول إلى الأرض .. عن طريق رحلة سياحية مثلاً .. أو دعوة على حساب الأرض فيها بدل السفر .

قلت له : لا أفهمك .. أنت تسخر مني ولم يكن شيخي يسخر .

قال : لا تقل أريد مع إرادة الله ..

قلت له : تريد أن تقنعني أن ما حدث كان مقدّراً معروفاً ومقصوداً من قبل ..

قال : أتشك في ذلك . من الذي خلقها .

قلت : الله .

قال : من الذي وضعها في طريقك ..

قلت : الله ..

قال : من الذي ألهمك أن تقول كلمة أثارت اهتمامها بك ؟

قلت : الله .

قال : من الذي خلق أصابعها بهذه الرقة ؟

قلت : الله .

قال : من الذي خلق رائحتها ولون عينيها ومذاق روحها .

قلت : الله .

قال : من الذي خلق قانون التوافق الذي انطبق عليكما فوقعتما في الهوى ؟.

قلت : الله ..

قال : من الذي أخذها منك بعد أن أعطاها لك ؟

قلت : الله .

قال : ماذا وجدت بعد أن فقدتها ؟

قلت : وجدت الله .

قال : لم تفقد شيئاً إذن أيها المخلوق ..

قلت : أتألم ألماً لا حد له .

قال : ألم تفهم بعد ، من الخذلان أن تظن أن تدبيرك لنفسك أصلح من تدبيره لك .

قلت : أبداً . أزداد حيرة .. لماذا فعل الله بي ذلك .

قال : لأنه يريدك .

قلت : ذهبت إلى الله فلم أجد أنه يريدني .

قال : وهو يبتسم بحزن ـ تقول انك ذهبت إلى الله .. ماذا سألته حين ذهبت إليه .

قلت : سألته أن يعيد إليّ نور .

قال : لم تذهب إلى الله .. إنما ذهبت إلى نور .. أخطأت الطريق .. الذين يذهبون إلى الله لا يطلبون غير الله .. هل أجابك الله لطلبك ؟

قلت : لا .

قال : سألتك نور شيئاً قبل أن تذهب .. هل أجبتها لما تطلبه ؟

قلت : لا .. لكنها بعد أن ذهبت فعلت كل ما طلبته .

قاطعني قائلاً : لا يهمني ما حدث بعد أن ذهبت .. أكنت تحبها أم تكرهها حين لم تجبها لما تطلبه .

قلت : كنت أحبها حباً لم أعرف أنني قادر عليه .

قال : كأن الاستجابة ليست دليلاً على القبول .

قلت : نعم .

قال : وكأن الرفض ليس دليلاً على الرفض .

قلت : نعم .

قال : الحمد لله .. لا تحزن لأن الله لم يعطك ما سألته .. إنما حاول أن تفهم .. لم تكن في الطريق إلى الله .. كنت في الطريق إليها .. الذين يسيرون إلى الله لا يسألون الله شيئاً .. يقول لك الرحمن الرحيم «سلني أجيبك يا عبدي المحب» .

لكنك لا تسأله شيئاً .. إنك تتأمل بالهيبة والدهشة والحب هذه المشاعر التي تولد داخلك .. لقد وصلت إلى مرحلة لا تريد فيها أن تسأل الله شيئاً .. تخجل أن تسأله .. أنت سعيد بوجودك بين يديه .. بغيابك عن نفسك بين يديه . لقد تساوت الأضداد وتداعت المسافات وقارب طرف المجرة البعيد طرفها القريب ، وسجدت النجوم فرأيتها تسجد ، وسجدت الأشجار فسجدت قبلها وسمعت من الأرض أي

دعاء قالته وهي تسجد ..

انتهى الأمر .. أنت الآن تحب حباً من نوع آخر .. حب تشاهد فيه مصدر النور لا نور وحدها .. كانت حبيبتك بكل ما أثارته من متاعب وآلام .. مجرد جدار يستلقي عليه بعض نور ينعكس من أنوار تجيء من أنوار تنبعث من أنوار معك الآن مصدرها .

ويقال لك : إليك « نور » التي أوجعت قلبك بسببها ..

وتقول أنت : رب لا أريد غير حبك .

ويقال لك : أنت في مقام المحبين ، إصعد إلى مقام المشتاقين .. وتصعد من مقام الحب إلى الشوق .. ومن مقام الشوق إلى الولاية ، ومن الولاية إلى القرب ومع كل درجة تصعدها تذهب أنت ..

قال شيخنا الأكبر الجنيد : يذهب هو .. يذهب العبد . يصير شبحاً تجري عليه تصاريف القدرة .. يضيع المحب في محبوبه .. إذهب الآن .

سألني سمير الشيخ قبل أن أذهب .

ـ ما هو الحب ..

قلت : إقامة العتاب على الدوام .

قال ؛ على أي شيء تقيم العتاب .

قلت : على النفس .

قال : خطأ . حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شيء تقيم عليه العتاب .

أخرج الآن ..

أشار سمير الشيخ وصفيه إلى الصحراء الموحشة المقبضة فخرجت ..

المحتويات

صفحة

صفحة

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص. ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣